

في الممرات

مختار المراسل التي نشرت في « السياسة الأسبوعية »
وطائفة من القطع الأدبية الأخرى جرى بها قلم محرر المرأة

ترك المراسل الخلق فيهم ما نال

وهذا ترك الخلق والنفس والطبع

حافظ إبراهيم



(حقوق الطبع محفوظة)

[الطبعة الأولى]

طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٥ هـ - ١٩٠٧ م

إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ ظُهُورِكُمْ

فِي الْمَسِيرَةِ

صُورًا جَادَ ثَنَائِي مَيِّنُ مُصَوِّرٍ
مِنْ بَعْدِ إِمْعَانٍ وَطُولِ أَسَاةٍ
فَإِذَا تَعَذَّرَ أَنْ تَرَى اخْلَاقَهَا
فَاسْتَجْلِهَا فِي هَذِهِ الْمِرَاةِ

كَانَ صَبْرٌ عَلَى السَّعْيِ وَوَسْمٌ يَنْجُو وَلَكِنْ

في الممرات

مختار المراسل التي نشرت في « السياسة الأسبوعية »
وطائفة من القطع الأدبية الأخرى جرى بها قلم محرر المرأة

تريك المراسل الخلق فيهم ما نألا

وهذا تريك الخلق والنفس والطبعا

حافظ إبراهيم

(حقوق الطبع محفوظة)

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٧ - ١٣٤٥ هـ

فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
طلعت حرب بك معه صورة ... ٩٥	إهداء الكتاب ... (د)
حافظ رمضان بك » ... ١٠١	تمهيد ... (هـ)
ابراهيم وجيهه باشا » ... ١٠٧	في خضرة الرئيس ... ١
حافظ ابراهيم بك » ... ١١٣	زيور باشا معه صورة ... ٧
هدى هانم شعراوى معها صورة ... ١٢٣	عدلى يكن باشا » ... ١٥
اسماعيل صدق باشا معه صورة ... ١٣٣	سعد زغلول باشا » ... ٢٣
من صدق باشا الى محرر المرأة ... ١٣٩	عبد الخالق ثروت باشا » ... ٣١
على الشمسى باشا معه صورة ... ١٤١	ابراهيم الغلباوى بك » ... ٣٧
الشيخ أبو الفضل الجيزاوى » ... ١٤٩	الدكتور محبوب ثابت » ... ٤٣
عزيز عزت باشا » ... ١٥٧	الدكتور محبوب أيضا ... ٥٢
أبو نافع باشا » ... ١٦٣	الدكتور على ابراهيم بك معه صورة ... ٥٥
شوق » ... ١٦٩	أحمد لطفى السيد بك » ... ٦٣
محمد محمود باشا » ... ١٧٧	سماعيل سرى باشا » ... ٧١
مختار (التنثال) » ... ١٨٣	عبد الحميد سعيد بك » ... ٧٧
الشيخ » ... ١٩١	الأستاذ فكرى أباطه » ... ٨٣
شيخ السوق ١٩٤	أحمد مظلوم باشا » ... ٨٩

إهداء الكتاب

الى هؤلاء السادة الذين بعثتُ القولَ فيهم : إنما استوحيت في هذه
« المَرَايا » خلاياكم واستأهمت نزعاتِ أنفسكم ؛ فأتتم أحق الناس بأن تُهدى
اليهم . فمن أصاب نفسه في « مَرَاتِه » فأعجبته صورته فليوجه الحمد لله
تعالى الذي سواه على هذا ، فليس لى من الأمر غير النقل والاحتذاء .
والسلام عليكم ورحمة الله ما

المخلص

محرم المرأة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

سألني صديق لي كريم المنزلة عندي أن أتخير له صدرا من تلك « المرآيا » التي أرسلتها في « السياسة الأسبوعية » لطبعها ويسويها للناس كتابا . وتعذرت عليه دهر الأتني إنما أعانيها على أنها بنتُ ساعتها وحديثُ يومها لا على أنها مما يثبت ، في الزمان ، لتردد الأقطار ، واعتياد الأفكار ، وما برح يعتريني بالاحاحه الكريم ويملك على مذاهب الحجج في مطالته حتى لم أجد لي مفيضا من التسليم . فجمعتُ منها طائفة وضممت اليها ما كتب في هذا الباب شاعر مصر الكبير حافظ بك إبراهيم في حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل ، وما كتب أديب آخر في حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر ، وجعلت أعود على تلك « المرآيا » بألوان التهذيب فأرتم مارث بالطبع ، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوّت العجلة من فنون المعاني ، وأعالج ما أضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام . وأضفتُ الى هذه المجموعة طائفة أخرى من رسائل شتى كان قد جرى بها القلم ، على أنها كلها مما يدخل في معنى تلك « المرآيا » ويتصل

بجفها . ثم لقد اعتمدت من ألفاظ هذا الكتاب كل ما يحتاج الى الضبط
فضبطته بالشكل ، وكل ما يحتاج الى المراجعة ففسرته ، تدريبا للناشئين
على المنطق الصحيح . وأمدني بأصدق العون في هذا كله وفي تصحيح
طبع الكتاب الأديبان اللغويان الأستاذ أحمد زكي العدوي والأستاذ محمد
صادق عنبر ، وصلهما الله عن الأدب بخير الجزاء .

وصدّرت كل « مرآة » بصورة صاحبها (الكاريكاتورية) من رسم
الفنان الأشهر الأستاذ (سنتيز) . أما صورة الغلاف فقد تفضل بوضعها
الأستاذ الفنان المبدع مصطفى بك مختار محرم ، مد الله في عمر أناملهما رحمة
بالفن الجميل .

واست أتحدّث عن مطبعة دار الكتب فان كل آثارها تحدّثك وحدّها
عما أوفى على الغاية من الدقة والجمال والاحسان . ولا يفوتني في هذا المقام
أن أتوه بما لحضرة محمد نديم أفندي ملاحظ المطبعة من همة وخبرة يزيّنها
حسن الخلال .

وقد راعيت في ترتيب هذه « المرايا » تواريج نشرها في « السياسة
الأسبوعية » فلا تأخذني ، بعد هذا بتقديم زيور باشا في « رجال السياسة »
على سعد باشا زغلول ، ولا بتقديم الدكتور محبوب ثابت في « الطب »
على علي بك ابراهيم ، ولا بتقديم الأستاذ فكري أباطه في « الوطنية »
على حافظ بك رمضان !



والغاية التي تذهب اليها « المرأة » هي تحليل « شخصية » مَنْ تَجْلُوهُ من الناس، والتسلُّل الى مداخل طبعه، ومعالجة ما تدسّس من خلاله، ونقضُ هذا على القارئ في صورة فكهة مستملحة . وهذا النوع من البيان إنما ترويناه عن كتّاب الغرب وما فتئنا نقلدهم فيه تقليداً ؛ على أن بعض كتّاب العرب من أمثال الامام الجاحظ قد سبقوا الى شيء من هذا التصوير البياني إلا أنهم لم يعدوا فيه تسقّط هنات المرء والصولة عليها بالوان التنذر والتطريف . أما التوصل بمظاهر خلال المرء الى مداخل نفسه ومنازع طبعه، واجراء هذا على أسلوب علمي وثيق (Psychologique) فذلك ما لم أقع عليه في منادراتهم ووجوه تطرفهم .

ولا يذهب عنك أن شأن الكتّاب في هذا الباب كشأن المصوّر (الكاريكاتورى) فهو إنما يعتمد الى الموضع الناقى في خلال المرء فيزيده في وصفه ويبالغ في تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات . وأنت خير بان مرّد النكتة الى خلل في القياس المنطقي بإهدار إحدى مقدماته أو بتزييفها أو بوصلها ، بحكم التورية ونحوها، بما لا تُتصل به في حكم المنطق المستقيم، فتخرج النتيجة على غير ما يؤدّى اليه العقل لو استقامت مقدمات القياس ، وهذا الذى يبعث العجب ، ويشير الضحك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع . ولا يعزّب عنك كذلك أن « النكتة » إذا لم تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يُحتاج في إدراكها الى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة لا طعم لها في مساغ الكلام .

ولعلك آخذى بأننى أسف أحيانا الى العامية الشائنة فأوردها فى درج الكلام . وعذرى فى ذاك ما تعرف من أننا نكتب بلغة ونتناول أسبابنا الدائرة بلغة أخرى ؛ وهيات لك أن تجل على القارئ صورة كاملة من حديث قوم فى مناقلاتهم ومنادراتهم وما تطارحوا من فنون النكات إلا بأن تورد كما نطقوا به ، وبخاصة اذا كان يجرى فى التعبيرات التى تشيع على ألسن الناس وتذهب عندهم مذهب الأمثال ؛ فاذا حاولت أن تؤدى هذا بفصح اللغة فسد الغرض وأختل نظم الكلام . وللامام الجاحظ فى هذا المعنى قول جليل ، فراجعه إن شئت فى كتابه « البخلاء » .



وبعد فالرأى ألا نتناول الأقلام بمثل هذا النوع من الحديث إلا أمراً يقوم على شأن عام ؛ على ألا تتره حقاً ولا تُضيف اليه ما ليس له ؛ وعلى ألا تُندس الى مكارهه ولا تطلب من مستور هناته ما لا يتصل بالشأن العام ؛ فاذا هى اعترته بعد هذا بالوان التندر كان حقيقاً بها ألا تصرف وجه القول الى الرغبة فى تهاونه والتهزئ به والكيد له . وهذا ما تحريره فيما عالجت من هذه (المرايا) فان يكن قد نذ القول بعض الحين فإننى أمرؤ يذبو على القلم ، وتزل بى القدم ؛ وإنى أستغفر الله وأسأله العافية .

في حضرة الرئيس^(*)

ملء السمع ، ملء القلب ، ملء البصر ، لو حاول بكل جهده ألا يكون
رجلا عظيما ما أستطاع ، وهيئات لامرئ أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله !
وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرّجه : فكان طالبا عظيما ، وكان
مدرّها عظيما ، وكان قاضيا عظيما ، ثم تناهت اليه زعامة أمة فهو فيها ملء
السهل والجبل .

بحسبك أن تراه لتعرف أنه سعدٌ ولولم يومئ اليك أحد بأنه سعد ، وكيف
يختلط عليك أمره وهذه يد القدرة قد دلت عليه بدلائل تنبئك بأنه ، وإن
كان من الناس إلا أنه أعظم الناس .

بسطة في العلم والجسم ، بسطة في العقل والحلم . وعزم تترايل الجبال
دون أن يتزلزل ، ويقين تتحوّل الأرض عن مدارها ولا يتحوّل ، ومنطق
يصول في الحلّى حتى لتحسبها الجحافل قد تداكت بسيوفها وعواليها ، ويلطف
في السمر حتى لتتمثل أسراب الكواكب وشوشت حلّتها وتضوّعت
منها غواليها .

وما إن رأيت ولا سمعت برجل فسّح الله تعالى له في البيان وأمكنه من
نواصي الحجة كما فسّح لسعد ومكّن لسعد . ولقد نتقدّم لمباراته في الأمر تظن

(*) نشرت بجريدة الأهرام الصادرة في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٦ عقب زيارة محرر
المرأة لدولة الرئيس إيلليل سعد باشا زغلول بمسجد وصيف .

أنت قد بلغت منه الغاية ووقعت على الضميم وتمنعت منه بالحصن القوي ،
فما هو إلا أن يرسل عليك الحجمة حتى ترى أنه ملك الرأي عليك من جميع
أقطارك ، وأنت سرعان ما وقعت أسيرا في يديه لتقلب فيهما تقلابا ، وهيمات
لك الخلاص إلا بأن تنزل في أمرك على الإذعان والتسليم ! .

وإن أنس لا أنس ليلة مضت من عشرين حاور فيها مستشارا كان
في محكمة الاستئناف ، معروفا بشدة الجدل ، في مسألة فقهية ، وكلما انحط
الرجل فيها على رأى أزجه سعد فطار الى غيره ، حتى اذا ظن أنه تمكن
في ^(١)أُخْوصه تار عليه بالحجة فوثب الى سواه ، وما زال به صدرا من الليل
ينشره ويطويه ، وينقله من رأى الى رأى ، ويحوّله من قول الى قول ، حتى
داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيه فضل لجوار ولا جدل ! .

ولا أدري أكان ذاك من سعد مجرّد تهّد للرأى وتعقّب لموطن
الصواب ، أم أنه إنما كان يتلعب بالرجل تلعبا لينزله على معرفة قدره ، ففي
نفس ذلك المستشار غرور وفي أنفه ورم ! أم هي ^(٢)الخيلة تبعتها في النفس
شدة التمكن من النفس ، وإنه ليلد لها أحيانا ألا تمتعك بذلك الواقع الذي
اطمأننت به والحق الذي استرحت اليه ، فما هو إلا أن تصول بالحجة عليك
حتى ترى أنك إنما كنت تقبض على الهواء ، وأن صرّحك الذي أقمته تفرّق
عنك تفرّق الهباء ، فتتولى منخذلا عن يقينك وقد ضربك الشك : أكنت

(١) الأُخْوص : مجثم القطاة وهو الموضع الذي تفحص الزبّاب عنه لبيض فيه .

(٢) الخيلة : الكبير .

مخدوعا عن الواقع؟ أم أن هذا الواقع دون قوة سعد فهو يصرفه بحجته كيف يشاء؟ ... لا أدري يومها ماذا كانت إربة الجبار . والله أعلم ! .

وسعد قد علت به السن وشاب رأسه ، على أنه ، بسط الله في عمره ، ما زال يمرح من فطنته القوية في أفق الفتوة وأمرع الشباب . ولو كُتِبَ لك الظفر ساعة يجلس هذا الذي دَوَّت الدنيا كلها بجده لتعمت بما لا يحقه الوصف من عذوبة طبع في عذوبة مجلس ، وحديث كأنه قطع الروض ^(١) رف أسه ونسرينه ، وتضووع ورده وياسمينه ، وبديهة كأنه يقرأ منها في كتاب ، وكأنها تستوحى الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب . ونادرة تُشيع فيك الطرب ، وتهزك من إعجاب ومن عجب ، إذ هو فيما يرسل من القول ، في جده ومزاحه ، لا يعدو ما ينبغي له من تحشم ووقار .

وإنه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يُفرخ روعك ، ويفسح لك في جوانب القول لتقول ، وإنه ليباريك في مزحك ، ويدارجك في حديثك إلى أن يرسلك على سجيته ويسترسل معك ، حتى إذا اطمأنت إليه وظننت أنك في مساجلة رجل مثلك ، خاتمه عبقريته ، فوشب به ذهنه إلى ما لا يتعلق به ذهنك ، فإذا أنت قد طرت كل مطير ، وإذا الطبيعة تأبى برغمك ورغمه إلا أن تشعرك أنك في حضرة سعد زغلول ! .

يا لله من هذا الرجل ! وإنه ليعرض في الأمر فيقول فيه مقالا ، وإنك لتقدر له بادئ الرأي غاية ما تعاهد الناس من حجة ، وأقصى ما تعارفوا من دليل ، فإذا هو قد وقع في تدليله على ما لم تقع عليه ظنون الناس ، وارتفع

الى ما لم تعلق به أذهانهم ففتح في المنطق فتحا جديدا وأتى بما يبهز ويروع ،
وكيف لسعد ألا يرتفع على مذهب حجة الناس ، وقد رفعه الله على الناس ؟ .
وسعد وافر الشعور بعظمته ، مزدحم الشعور بأنه إنما يتحدث على
آمال أمة ، فهو مهما بارى المجلس في فنون أحاديثه ، ومهما تدلّى به السمر
الى تلك الأسباب الدائرة بين الناس ، يرفّه بذلك عن نفسه وعن صحبه ،
يَطْفَرُ القَيْنَةُ بعد الفينة الى حديث الوطن فيشك فيه معنى جليلا ، ثم يعود
فيصيب ما شاء الله من حديث القوم . أعلمت أن سعدا لا يصلح إلا للوطن ،
وأن الوطن لا يصلح إلا بسعد ؟ .

أريد أن أكتب عن سعد ، ومن الغرور أن أضن بقلمى الوفاء بوصف
سعد مهما تفرج له في جوانب البيان ، فإن البيان إنما يحرق في غايته الى
ماتعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس ! أما تلك النفحات الإلهية التي يرسلها
الله تعالى في العصور الطوال ثَنِيًّا ^(١) بعد ثَنِيٍّ ليقيل أهل الأرض الزلّة ،
ويهدّهم من الضلّة — فذلك ما تعجز عنه اللغى ويقصر من دونه البيان .

وبعد فاذا أردت أن تصف للناس سعدا فلن تستطيع أن تصفه بأبرع
من لفظة (سعد) فقد جمعت من وجوه المعاني ما لا يبلغه الكلام ، وإن قدرته
العقول وتعلقت به الأفهام .

(١) وثنا بعد وقت .



لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ! ...

زيور باشا . . . ؟

أما شكله الخارجى وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية
فذلك كله يحتاج فى وصفه وضبط مساحاته الى فن دقيق وهندسة بارعة
والواقع أن زيور باشا رجل — اذا صح هذا التعبير — يمتاز عن سائر الناس
فى كل شىء ، ولست أعنى بامتيازهِ فى شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بُعد
مداه ، فإن فى الناس من هم أبَدن منه وأبعد طولاً وأوفر لحماً ، إلا أن لكل
منهم هيكلاً واحداً ، أما صاحبنا فاذا اطلعت عليه أدركت لأوّل وهلة أنه
مؤلف من عدة مخلوقات لا تدرى كيف اتصت ولا كيف تعلّق بعضها
ببعض ، وإنك لترى بينها الثابت وبينها المتخالف ، ومنها ما يدور حول نفسه
ومنها ما يدور حول غيره ، وفيها المتبَسّ المتحجّر ، وفيها المسترخى المترهل .
وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعافها الى الأمام شعبةً
طويلة أطلّ من فوقها على الوادى رأس فيه عينان زائغتان ، طلّة من يرتقب
السقوط الى قرارة ذلك المهوى السحيق !

وإنك لتجد ناسا يصفون زيور بالدهاء وسعة الحيلة ، بينما ترى آخرين
ينعتونه بالبساطة وقد يتدلّون به الى حدّ الغفلة ، كما تجد خلقا يتحدّثون
بارتفاع خلقه وتنزهه عن النقائص ، إذ غيرهم ينحطون به الى ما لا تجاوره
مكرمة ولا يسكن اليه خلق محمود !

كذلك زيور عند الناس مجموعة متباينة متناقضة متشاكسة: فهو عندهم كريم وبخيل، وهو شجاع ورعيد، وهو ذكي وغبي، وهو طيب وخبيث، وهو داهية وغر، وهو عالم وجاهل، وهو عَفَّ وشَهْوَان، وهو وطني حريص على مصالح البلاد، وهو مستمتر بحقوق وطنه يجود منها بالطارف والتلاد !!

كل أولئك زيور، وكل هذا قد يُضيفه الناس الى زيور فلا تكاد تسعهم مجالسهم بما يأخذهم فيه من الدهشة والاستغراب. وإذا كان هذا مما لا يمكن في الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد فقد غلط الناس إذ حسبوا زيور رجلا واحدا، والواقع أنه عدّة رجال، وعلى الصحيح هو عدّة مخلوقات لا تدرى، كما حدثتك، كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ! فإذا أدهشك التباين في أخلاقه، وراعتك هذا التناقض في طباعه، فذلك لأن هذا الحرم العظيم الذي تحسبه شيئا واحدا مؤلف في الحقيقة من عدّة مناطق لكل منها شكله وطبعه وتصوره وحظه من التربية والتهديب: فمنها العاقل ومنها الجاهل، ومنها الحكيم ومنها الغر، ومنها الكريم ومنها البخيل، ومنها المصرى، ومنها الهركىسى، ومنها الفرنسى، ومنها الانجليزى، ومنها المالىطى الخ؛ كل منها يجرى في مذهبه ويتصرف في الدائرة الخاصة به، فلا عجب إذا صدر عن تلك المجموعة الزيورية كل ما ترى من ضروب هذه المتناقضات !

والظاهر أن زيور باشا برغم حرصه على كل هذه المتملكات الواسعة، عاجز تمام العجز عن ادارتها وتوليها بالمراقبة والإشراف. وما دامت الإدارة المركزية فيه قد فشلت كل هذا الفشل فأحرى به أن يبادر فيعلن إعطاء كل

منها الحكم الذاتي على أن تعمل مستقلة بنفسها على التدرج في سبيل الرقي والكمال، وحسب عقله، في هذا النظام الجديد، أن يتوافر على إدارة رجله وحدهما، ولعله يستطيع أن يسيّرهما في طريق الأمن والسلام !



وإني أورد عليك طائفة يسيرة تدلك على مافي هذه المجموعة الغريبة من ضروب المتناقضات التي تجزم منها بأن ذلك الخلق ليس شيئا واحدا وإنما هو في الحقيقة عدة أشياء :

فزيور باشا معروف بالقناعة والتعفف عن الابتذال في إحراز الأموال، ولكنهم في الوقت نفسه يقولون إن جميع نفقات الولايم التي أقامها في مصر وفي أوربا قد تناولها من « المصاريف السرية » بينما هو يقبض من خزانة الدولة ألف جنيه لهذا الغرض في كل عام !

ومما يحسن ذكره في هذا الموضوع ما تحدثوا به من أنه لما زار أوربا في الصيف الماضي طاف بجميع المفوضيات المصرية هناك فسلّ كل ما فيها من « المصاريف السرية » حتى إذا علم أنه قد أتى على كل ما في مفوضية باريس من هذه الأموال ولم يدع لها قرشا ولا بارة أرسل تلغرافا الى مفوضية لندن لتسعفه بكل ما عندها من النقود !

ولقد تعلم أحيانا عن زيور باشا حرصه على مصالح الدولة، على أنك إذا عاتبته على إسراف الحكومة في عهده وابتذالها لأموال الدولة بهذا الأسلوب الفادح أجابك من فوره « ان مصر غنية » (l'Egypte est riche) !!!

ولقد تعرف في زيور باشا طيبةً في القلب وسلامة في الخلق ، ثم لقد يظهر لك فيه من المكر وتري له من أنواع الدس ما يعيا بمثله أخبث الشياطين . ولقد ذكروا أنه كلما التقى بسعدى أنب قومه على اتفاقهم مع « ألد أعدائهم » الأحرار الدستوريين ، وإذا أصاب حرا دستوريا قال له : كيف يصح أن تُتحدوا مع أولئك « المجانين المخربين » !

ولقد كان شديد الشكوى من نشأت باشا وبسطة يده في كل مصالح الحكومة ، فاذا قيل له : وكيف لا تكفّه عن هذا وأنت رئيس الحكومة؟ بسط كفيه ورفع رأسه الى السماء وأجاب : وهل يستطيع أحد أن يعمل شيئا ؟ فلما أُقيل نشأت باشا من السراى جعل زيور يُقبل على كل من لقيه يتمدح بأنه هو الذى أخرجه ووقى البلاد شرا عظيما !

وقد يعرف عنه بعض الناس قلة الخير ومع ذلك فإن له صاحبا ورفيقا من رفقاء الصبا هو (ص ، بك غ) وله ولد يطلب العلم في باريس فعينه في مفوضية باريس في وظيفة غير موجودة !

وعلى هذا الصديق دين لبعثة المرسلين الإفريقيين في مصر وقد استبهمز الريح فوسط في الأمر صديقه زيور باشا الذى قصد الى روما في تجواله بأوروبا في العام الماضى ، ومع ما يعرف عن دولته من أنه خريج مدارس الجزويت وأنه أخذ عنهم الدهاء والمكر وبُعْد غور النفس ، فقد طلب مقابلة قداسة البابا نفسه وخاطبه في الأمر وسأله التخفيف من دين صاحبه ، والبابا أحاله على وزير خارجيته الكاردينال جاسبارى ، وبعد أن سمع هذا من رئيس

وزراء مصر كل ما أراد أن يقول هنز كتفيه وقال له : (Chi ricevuto paga) أى « على من أخذ أن يدفع » وكان على زيور باشا أن يعرف ذلك !

تلك بعض آثار هؤلاء الذين يدعونهم زيور باشا ، فاذا تمثّلوا شخصا وبدّوا للعيون رجلا واحدا فذلك مصداق قول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

وإن أهل مصر ليأخذون زيور باشا كله بما لا يخصى من الجرائم على القضية الوطنية، وإنهم ليعدون عليه سفهه في أموال الدولة واستهتاره بمصالحها ، وإنهم ليحسبون عليه إيثاره الأهل والأقربين والأصحاب والمحبين وذوى أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها، وقد يكون لمجلس التّواب مع هؤلاء الرجل شأن اذا أقبل يوم الحساب !

وإن ظلما أن يؤخذ البرىء بجريرة الآثم، وإن عسفا أن يعاقب المظلوم بما أجرم الظالم، فقد يكون الذى اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور باشا الأيسر، أو القسم الأسفل من (لُغده) أو المنطقة الوسطى من نِغْده اليمنى، أو غيرها من تلك الكائنات التى تجمعت في هيكله العظيم ، فما شأن تلك المخلوقات كلها تُجرّأ الى مواطن الاتهام، وتعاقب بما ارتكب بعضها من الجرائم والآثام ؟ ! .

إن الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس التّواب ، ان شاء الله، لجنة تقوم بعمل التحقيق في جسم صاحب الدولة فتسأل أعضائه عضوا عضوا ،

وتحقق مع اشلانه سِلُوا شلوا، حتى يُفَرَّق منها بين المحسن والمسيء، ولا يُخَلَطَ في العقوبة بين المجرم والبريء .

ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو خ زيور باشا، فما أحسبه شارك ولا دخل، في شيء من كل ما حصل !



وبعدُ فإذا كان هناك وصفٌ جامع وخَلَّةٌ مشتركة لهذه الخلائق التي تجمعت لجسم زيور باشا حتى انتظمت فيه شَعْبًا واحدًا فذلك أنه قسيس جزويتى فى جلد رئيس وزارة مصرى ، فقد تربى زيور فى مدارس الجزويت كما قلت لك ، وتخرج عليهم وتخلَّق بأخلاقهم . فإذا رأيت فى طبعه سهولة وفى نفسه بساطة فذلك لبعد غوره حتى لِيُخْفَى عليك ما فى نفسه من مكرودهاء !

وفيه صفة أخرى جامعة أيضا هى شِدَّةُ احترامه «للبرنيطة» وعمله على إرضائها بكل الوسائل ، فما عُرِفَ أن زيور ردَّ فى حياته طلبا «لبرنيطة» مهما كان حاملها فى الناس ، حتى لقد زعموا أن بعض كبار علمائنا الأعلام، مصابيح الدجى وعمد الإسلام ، بعد ما أعياه الكد والجهد وشدة الطلب والسعى وطول الوقوف بالأبواب ، والتردد بين مختلف الأحزاب ، فى سبيل وظيفة خالية عَزَمَ أخيرا على لبس القُبَّة لعله يحظى فى هذه الأيام ، بمَعُونَةِ (١) زيور على إفتاء الديار أو مشيخة الإسلام . ومولانا الشيخ المذكور، بوجه خاص ، لا يعدم ألف فتوى من الشريعة ، يُحَلَّ له هذه الذريعة .

(١) نشرت هذه المرأة وزيور باشا فى رئاسة الوزارة .



لَا مُعْنَى بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا كُلُّ عَجِيبٍ فِي عَيْنِهِ بِعَجِيبٍ

عدلى يكن باشا

أسمر اللون فى شحوب، إلا أن ما يخاطب سمرته من صفرة حلو مستعذب .
يمتاز بقليل من الطول وكثير من العرض ، فهو بعيد ما بين الكتفين حتى
لتعرفه موليًا كما تعرفه مقبلا . مستوى معارف الوجه ، حديد البصر، اذا قُدِّرَ
لك أن يحدّق فيك شعرت أن نظره لا يستقرّ على سطحك بل إنه ليتغافل
فى أطوائك ويصل من نفسك الى كل ما ترضى به على الابتذال . وادع
ساكن لتجلجل الدنيا من حوله وهو ثابت ثابت الهرم الأكبر . ولقد تجلس
اليه تحدّثه فى شئون الدنيا فتطالع به بأجل أحداثها فلا يتقبّض ولا يتخلّج،
الا أنه يستلقى على كرسيه ثم يدس يسه فى جيبيه ويدير يميناه رزمة من
المفاتيح . وتحسب أن ذهنه ليس عندك اذ هو عندك كلّ لا يفوته من
حديثك قليل ولا كثير .

وكانت لجنة الدستور، وزاره بمحضرى رجل من أعضائها، فسأله ماذا
صنعتم اليوم ؟ فقال له كذا نتناقش فى موضوع (كذا) فاستوى عدلى على
كرسيه ولبث ساعة يتدفق بالحديث فى ذلك الموضوع ويورد كل مذهب
علماء الدستورية ، يعلل كل رأى ويوجه كل مذهب فى بلاغة وفصاحة
قول ودقة تعبير، وخرجنا وصاحبي يضرب كفا بكف، ويزعم لى أنه لو حلف
بكل مؤثمة من الأيمان أن عدلى كان حاضرًا لحتهم ما حنث ولا أثم !

شديد القصد فى حديثه ، فاذا أذن الله وتكلم فهو حلو الحديث رسم الصوت ، بارع المطلع ، رائع المقطع ، يُصيب المحزّ ويقع من فوره على الباب . تشعر أنه خلص الى الغاية وأصاب صميم النزاع دون أن يعلّق بقوله شىء من وِزير الجدل وما لا تدعو اليه حاجة الكلام .

لعل عدلى قد جاوز الستين ، وأحلف بدورى أن مصر لو كانت عاشت عيشا طبيعيا خاليا من الأحداث والعظائم ما كان له فى الدنيا أثر ، ولا جرى له على لسان جمهرة المصريين ذكر ولا خبر ، فلقد نجم عدلى باشا فى مناصب الحكومة كما نجم غيره من الناس موظفا صغيرا فى وزارة الداخلية ، وما برح يتقلب فى فنون الأعمال العامة حتى أصبح وكيل مديرية فمديرا فمحافظا للعاصمة فمديرا لديوان الأوقاف فمتقاعدا فى داره فوكيلا للجمعية التشريعية فوزيرا للعارف ؛ لا يمتاز فى شىء من ذلك الا بالنبل والكبر على الصغائر والترفع عن سفساف الأمور . وكل ما كان له فيما عالج من الأعمال من صحة الرأى وصدق التدبير وحسن التنظيم ، فما كان ليذكر له شىء منها الا بالسن من شارقوه وهن عمَلوا معه . أما عظمة عدلى وأما شهرته الخالدة على الزمان فهو مدين بهما للجُلّ وللاحداث العظام ؛ فلولا جسيات الأمور لكان عدلى رجلا مُدرجا فى عداد سائر الرجال .

ولقد كان وزيرا للعارف فى وزارة رشدى باشا فى سنة ١٩١٨ وتهادنت الدول المحتربة الهدنة العامة وثمرت لعقد الصلح وتوقع المتطيرون أن تكون مصر من حصّة انجلترا فى سَلَب تركيا المقهورة ، فهض رشدى ومعه صاحبه عدلى وناجيا الانجليز بأنهما يريدان أن يشخصا الى انجلترا ليراجعاهما فى حقوق

مصر التي ضحت بما ضحت من الرجال والأموال في نصرة قضية الحلفاء .
وتناقل الانجليز عنهما وتعللوا باشتغال ساستهم عن لقائهما بالاستعداد
لمؤتمر الصلح ، وخاف رشدى وعدلى أن تُفْلِتَهما الفرصة ، وكرها الصبر على
الهُضيمة فنَفَخَا في الحركة الوطنية من روحهما القوى وراحا يؤازران الوفد
المصرى ويشدّان عضده من جهة ، ويشرّعان الإضراب للموظفين
ويستحِمسان الجماهرة من جهة أخرى ، حتى كان من أمر النهضة المصرية
في سنة ١٩١٩ ما كان . وتلك أولى عزائم عدلى التي يحصيها له الجمهور .

وهبط ملتر مصر والوفد قائم في باريس ودارت اللجنة هاهنا وهاهنا لعل
أحدا يعاطيها أو يقاومها ، فاستمسك الناس كلهم عنها ولم يُؤَاتِها منهم أحد ،
فعاذت في النهاية بالثلاثة الأعلام : رشدى وعدلى وثروت ، فصارحوها
بأنها إن أرادت الحدّ ، فلا تفاوض في شأن مصر غير الوفد ، فلتَمَضِ الى
باريس فهناك الحديث . أما في مصر فلن تجد ، مهما طال بها المقام ، ثلاث
قطط تحبّها في شأن البلاد !!

وانكفأت لجنة ملتر الى لندن واستشرفت حقًا لمفاوضة الوفد ، اذ الوفد
لا يتحول الى لندن دون أن يستبين موضع خطّوه ، ويريد ، وبين يديه رجاء
أمة : أن يعرف فيم مذهبهُ وأين يقع حديثه ، وكيف تكون غاية أمره .
فدارت الانتظار كلّ مدار فلم تقع لهذا المهم الا على عدلى فدعاه الوفد فلبّى
الدعاء وشخص الى باريس فلندن فمهد الطريق ووطأ أكناف السياسة هناك ،
وكان خير معوان للوفد على أداء مهمّة الخطير .

وَأَلَّفَ الوزارة في صدر سنة ١٩٢١ وشخص الى لندن في وفد رسمى وفاوض كرزى وأدلى اليه بحقوق مصر وأمانيتها كلها، وأبى أن ينزل على ما أراد الانجليز أن ينزلوا مصر عليه، فقطع المفاوضة وعاد من قوره مرفوع الرأس موفور الكرامة، وما كادت تستقر قدمه حتى استقال من منصب الوزارة استقالته الكريمة النبيلة .

واليوم وقد تحرجت الأمور، وتصدّت القوة بكل ما عندها لتنال من مصر فلا يلتفت زعيمها الأكبر الا الى صديقه عدلى . وكذلك كان شأن عدلى دائما تلتفت مصر اليه كلما نزلت بها الأحداث الجسام .

وبعد فلقد تحسب عدلى رجلا عظاميا تلقى المجد عن آباءه العظام الفاتحين . والواقع أن عدلى يكن رجل عصامى بأجمع معانى الكلمة، وقد لا يعدله في عصاميته هذه رجل آخر في البلاد .

فأنت تعرف أنه ابن نعمة نشأ في الحسب، وتقايت أعطافه في الترف، وأغناه الله عن طلب العلم وكدح الذهن ومطاوله حوادث الدهر، ولِدَاتُهُ^(١) كثير وأكثهم — وبخاصة في الزمن الذى نجم فيه عدلى — لا يقع هواه الا على مَهَارِشَةِ الدِّيَكَةِ، ونِطَاحِ الْيَكْبَاشِ، والملاعبة بالحمام، ومعاشرة المتبطلين، والافتنان في وجوه اللذات، والغباء الكامل عن كل ما يعنى البلاد، فهل صدقتنى أن عدلى رجل عصامى حقا اذ خرج عن هذه البيئة فكون نفسه كل هذا التكوين وعارك من الحوادث ما عارك حتى أصبح من أعظم الذخائر التى تعتد للجلى

(١) لداته : أترابه الذين ولدوا معه وتربوا .

فى البلاد ؟ وحسبُه ما وصفه به صحفى من أكبر الصحفيين فى أوروبا :
 (١) انك حين تلقى عدلى باشا فكأنك فى حضرة أعظم الوزراء فى «دونتج استريت»
 (٢) أوفى «كيدورسيه» .

وإن من يعرفون عدلى ليعتدون له عيوباً ، ويخصّون عليه آثاماً وذنوباً ،
 وسبحان من تفرد بالكمال .

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلاً أن تُعدّ معاييه

فهم يحسبون على طباعه أنه ما برح « ابن ذوات » فهو قليل الاتصال
 بالناس ، شديد التحفظ بنفسه عنهم ، لا يزورهم ولا يستزهم ولا يستريح الى
 مجالستهم . ومهما توافى له انسان وتعلق بحبه فهو لا يطالعه بالهناء اذا دخلت
 عليه نعمة ، ولا بالمواساة اذا مسّه الضرر ، ولا يعودده اذا مرض ولا يشيّع
 جنازته اذا مات ! واذا طلبه صاحبه لحاجة عامة أو خاصة حيّره وشتّت
 سعيه ، فاذا أرادته فى البيت قالوا له فى «الكلوب» واذا وثب الى «الكلوب»
 قالوا فى البيت . ويحلفون على أن اقتحام قلعة للألمان وقت الحرب العظمى
 أيسر من زيارته فى بيته !

ولو قد كُتب لى أن أصبح هيئة سياسية واحتجّت فى شأن البلاد الى
 سعى عدلى باشا لوكلت به (عصبة) من أولاد البلد أولى القوة والفتوة
 فتسلّموه فى صباح كل يوم ، وأرادوه على المشى ساعتين فى الأحياء الوطنية ،
 وأكرهوه على أن يُفشى السلام ، ويومئ بالتحية لكل من لقيه ، حتى اذا جُهد

به رذوه فأجلسوه فى البهو وفتحوا الأبواب بين يديه وكلما دخل عليه زائر
 بعنوا وجهه بالهشاشة ، ويديه بالتحية ، ولسانه بنحو : « أهلا وسهلا
 ومرحبا . زارنا النبي — شرفتنا . آتستنا » الخ ثم صفق بيديه فدعا بالقهوة
 وعرض على الزائر « نرجيلة » فاذا ردها قدم له ميجارة فسيجارة فثالثة . فان
 كان الضيف موظفا سأل عن عمله ودرجته ومرتبته ؛ وأظهر له التوجع على
 تأخره وتقدم أقرانه ، وان كان زارعا أقبل عليه فسأل عن القطن وما عسى
 أن يكون قد اعتراه من الآفات ، والمناوبات وشح المياه ؛ ومناطق الأرز وإطفاء
 الشراقي وسعر كيلة البرسيم اليوم ! ... واذا حضر وقت الغداء — وهنا
 الكلام — وهم الضيف بالانصراف أمسك بطرف ثوبه وعزم عليه ليتغدى
 معه . وحلف جاهدا أنه لا يجد فى ذلك كلفة ولا يتجشم فى سبيله مشقة .
 وأنا بعد ذلك ضامن لدولة الباشا أن الضيف منصرف غير لايث ؛ معتلا
 بالمرض وضعف البنية ، أو بالضيف ينتظره فى داره ، أو غير ذلك من وجوه
 التعاليل ؛ ولا يحتمل الباشا من هذه « الكركبة » كلها الا حسن الذكر وسيرورة
 الأخبار ، بما له من رائع الآثار ، فاذا ذكرت الشجاعة قالوا إنه عنتر عبس ،
 واذا ذكر الحلم حلفوا أنه الأحنف بن قيس . واذا عرض حديث المكارم ،
 أقسموا أنه أجود من حاتم ، فاذا كان الكلام فى الفصحاء والمقاول ، زعموا
 أنه أخطب من سحبان وائل .

فأما اذا ظل ساجدا فى السماء ، فما أقل حظ أهل الغبراء ، من عدلى باشا
 فى الزعماء .



وَدَعَاكَ حُسْدَكَ الرَّئِيسَ وَأَمْسَكُوا * وَدَعَاكَ خَالِقُكَ الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَ
خَلَقْتَ صِفَاتِكَ فِي الْعْيُونِ كَلَامَهُ * كَانِخَطٌ يَمَلَأُ مَسْمَعِي مِنْ أَبْصَرَ

سعد زغلول باشا

رزقه الله بسطة في الجسم والجاه فهو ملء العيون ملء الصدور . بلغ
في دنياه ما دون التَّحِيَّةِ ، وأدرك ما وراء الأُمْنِيَّةِ . إذا غَشِيَ مجلسا وفيه
قوم جلوس رأى القوم أنفسهم وقوفا ولم يريدوا ، وتنحَّوا عن الصدر ولم
يقصدوا ، وخاطبوه بالرياسة ولم يتعمدوا ، ورأى سعد نفسه رئيسا ولم
يتطلَّع . فما جلس سعد مجلسا فأقيم عنه لغيره . وكذلك كان يقول الأحنف
عن نفسه . فسعد طالب العلم الحاملُ الذي لا يعرفه غير سُجَّرائِهِ . وسعد
الزعيم النابه الذي تعرفه الأعاظم والعظامم سواءً .

إذا وقف سعد يخطب الناس وثبت الألفاظ من مكانها وأسفرت
المعاني عن وجوهها وتغايرت في السبق الى ذهنه ولسانه ، فلو أن كاتباً
كتب ما يرتجله ذلك الخطيب لوقعت منه على أسلوب سَرِيٍّ رائع ينقطع
دونه تميم الأقلام . فاذا جلس سعد الى الإنشاء وقعت منه على أسلوب
لا يُغَبِّطُ عليه كاتبه ؛ فلو أن حالفا حلف أن سعدا الخطيب هو غير سعد
الكاتب لبرت يمينه .

يطلع سعد على الناس وهم يرتقبون طلعه ارتقاب المدلج الحائر طلوع
القمر ، فيدانيهم وهو يكاد يتهذم ضعفاً ، على وجهه تجاعيدٌ من أثر السنين ،

فلا يكادون يتلقَّونه بالتهليل والتصفيق حتى ترى ذلك الشيخ وقد طوى ماضيه القهقري فالتقى بشبابه وكأنما وثب من الشيخوخة الى الصبا ؛ واذا بتلك التجاعيد وقد انحَّت وتلك الأسارير وقد أشرقت ، فيخطبهم ما يشاء حتى اذا أفاق من سكرة ضعفه وأسكر سامعيه ببحر فصاحته انكفا بين التصفيق والهتاف الى داره فقضى فيها ساعة أو ساعتين من سَاعِ الشباب ثم عاوده الضعف شيئا فشيئا حتى يدخل في شيخوخته كما كان . ومن لم يعرف ذلك الرجل العظيم الذى علت سِنُّه وتكامل تمييزه ولم يلابسه فى أطوار حياته لا يشك فى أنه انما كان يتمارض (أو يتصنع المرض كما يقولون) .

ارتاح سعد لمهنة المحاماة لأجل الخطابة ، وارتاح للزعامة لأجل الخطابة ، وهو يرتاح لكل ما فيه منفذ للخطابة . ولا غرو فقد من الله عليه بموهبة عظيمة لا يمن بها على كثير من عباده فهى لا تفتأ تتطلع للظهور فأنى أصابت منفذا أطلت منه . فلو أنك عرضت على سعد ملك الرشيد على أن يهجر الخطابة لنأى عنه بجانبه ولرجع مهرولا الى الزعامة فان أفلته فالى المحاماة .

نقل الى بعض خاصته الذين يحبون بابه أنه استأذن يوما لوفد من الوفود وكان سعد فى ذلك اليوم لَقِسَ ^(١) النفس متبرما بالناس لكثرة ما لاقى منهم فقال له اعتذر ، فقال إنهم يلحون ؛ قال فأذن لهم على أن يسلموا وقوفا وينصرفوا ، فأدى اليهم الرسالة ودخلوا ؛ وأقسم لى الحاجب أنهم لبثوا فى حضرته ساعة وبعض ساعة وهو لا ينقطع عن الخطابة .

(١) لقست نفسه من الشئ : غثت وقضايقت .

كنت بحضرته يوما وقد مثل أمامه وفد من الوفود فمد بصره اليهم وقال: من خطيبكم؟ فلما لم يُصَب فيهم خطيبا كاد يُعرض عنهم لولا حاجته الى مناصرتهم .

لذلك تقربت اليه الوفود بالخطباء، وشاع في نفوس النشء حب الخطابة تشبها بسعد، فكثرت الخطباء وفي كثيرهم مظهر من مظاهر النهضة الوطنية المباركة . فسعد مدرسة لا تقفل أبوابها يؤقها الطلاب من أنحاء القطر .

إنه يتشدد في الحق ولا يترخص فيما يعتقد أنه حق . ذلك كان شأنه قبل الزعامة ، فلما ملك يومه وأصبح الزعيم الأکبر أبت عليه طبيعة السياسة أن يأخذ دائما بذلك التشدد ، فهو اذا وقفت به الحزبية بين الصواب وبين هوى العامة لا يلبث أن يعدل الى الثانية تمكينا لسلطانه عليهم . يفعل ذلك وهو يعدها في نفسه على نفسه قبل أن يعدها خصومه عليه .

نزل سعد الى ميدان السياسة وهو يظن أنها كالتضاء سبيلها الحق والعدل ، فلما خاض غمارها ورأى ما راعه فيها من أساليب المداخلة وأفانين الخداع هم بالنكوص لولا أن إيمانا رسخ في قلبه وبقينا ملائحة أنحاء نفسه أن صاحب الحق هو صاحب الغلب حملاه على الثبات فتدرع بهما ووطن نفسه على الكفاح . وقصاراه أن يشهد بعينه دستور مصر وقد سلم لمصر ، وأن يرى وطنه مستقلا تحت ظل الله ، فهو يعمل لهذا المقصد الأسمى ، ولشد ما يتكى في هذا العمل على نفسه ، وما كان ذلك لضعف في ثقته بمن حوله ولكنه رجل قد بُني على الجد والعمل .

أبت الناس إلا أن سعدا ضيقُ الصدر . وكيف لا يضيق صدره وإن كان رحيما وهو مدفوع بحكم الزعامة أن يقابل كل من يصبُّ عليه أفق السياسة من الزائرين والقاصدين وفيهم ثقل الظل جامد النسيم ، والمُلح الذي يكاد يستل بإلحاحه خيط النخاع ، والمتربح بزيارته ، وذلك الذي تخرج من حديثه ركضا الى طيب الآذان ، وذلك الذي يقتلع الكلام من فمه اقتلاعا حتى لكأن نفسك تطلع منه على حشجة لا على استماع حديث .

دع الجاهل المتصدر والأئمة الذي يدعى فهم ما غاب عن بسمرك من السياسة ، وما خفى على نابليون في تعبئة الجيوش من الكياسة . وإنَّ جلسة واحدة الى الشيخ (فا ...) لتبغض الحلم الى الأحنف ، ولترهد الزعيم في كرسى الزعامة . ولو أن أعداءنا فطنوا لذلك لرموا سعدا في كل يوم بمثل هذا البغيض حتى يفتر من الميدان ، ونحسر بفراقه قضية الأوطان .

دخل عليه ذات يوم في داره بمسجد وصيف شاب من المفتونين فسلم عليه سلام الأكفاء وجلس معه على بساط المساواة ولم يحتشم ذلك المفتون في جلسته ، فقد جعل يصفر بغمه ويلعب الجؤ بسلسلة ذهبية كانت في يده ، ولما قضى شهوته من العبث بمحاضرة ذلك الشيخ الجليل التفت اليه وقال : يقولون إنك خشن الملمس قريب الغضب ولا أرى فيك الا حايما ، فأجابه سعد وعلى فمه ابتسامة الكاظم لفيظه : وكأنك ما جشمت نفسك السفر وجئت لي الا لتستثير غضبي ، قم فليست هناك .

وزاره في بدء الحركة الوطنية أحد المتطرفين ، فتجادل في أمر من الأمور
وحجى الجدال ، فأغلظ المتطرف القول ، فقال له سعد : أتجهبني بمثل هذا
وأنت في بيتي ! قال : لم أكن في بيتك ! قال : فني بيت من أذا ؟ قال :
في بيت الأمة . فسرى عن سعد وقال له : صدقت ! إنه بيت الأمة ! ومن
ذلك الحين أصبح بيت سعد بيت الأمة .

وإن صدرا يتسع لما يضيق عن بعضه صدر الدهر لخليق أن
يسمى حامله حليما .

وهو كثير الذهاب بنفسه ، ولم يجهه ذلك من ناحية الزهو كما يزعمون ؛
ولكن جاءه من ناحية التمكن من النفس .

جلس اليه أحد أقرانه وكانت بينهما وحشة لشيء قد بلغه عنه ، فقال له
سعد وهو يحاوره : اعلم يا هذا أنني معجب بنفسى وكيف لا أعجب بنفسى
وأنا لا أرى من يعمل غيرى .

يسره أن يؤكل طعامه وأن تُغشى داره ، ولكن قلما يسره أن يخالف
رأيه ، اللهم الا اذا لمح بعين بصيرته أن من وراء تلك المخالفة إجماعا .

يجلس سعد الى مناظره وفي يد مناظره الحجة قائمة ، فلا يزال به يستلها
من يده شعرة شعرة حتى تصير الحجة في يد سعد فيقيمها على مناظره .

يسوء النقد الا اذا كان نزيها ، وأنى لهذا البلد بالنقد التزيه !
إن سعدا يكلف الناقد شططا ، أنسى أن نصيبه من ذلك نصيب كل

نابغة مشهور ؛ وكل عظيم مذكور . وقد جاء في الأمثال اذا قيل عنك إنك
نابغة فودّع الراحة .

نشأ سعد وفي ثوبه عظيم ، كان في الحمامة رأس المحامين ، وكان
في القضاء رأس القضاة ، وكان في الوزارة رأس الوزراء ، ولم يكن في كل
أولئك بالرئيس الرسمى اللهم الا في وزارته الأخيرة .

فسعد عظيم وهو ابن عشرين ، وفوق العظيم وهو ابن سبعين . وقد قال
أديب من صفوة أدباء مصر : عظماء الرجال أمثال الجبال ، لا تنقص
الكهوف ما لها من العظمة والجلال .

حافظ ابراهيم



أبو الهول :

لِي فِي ضَمِيرِ الدَّهْرِ سِرٌّ كَامِنٌ * لَا بُدَّ أَنْ تَسْتَلَّهُ الْأَقْدَارُ

عبد الخالق ثروت باشا

لطيف الحجم ، دقيق الجسم ؛ لولا بدونة دخلت عليه في السنين الأخيرة ؛
طلق الوجه ، عذب الروح ، فكّه الحديث . ولو أنه قدر لك أن تصحبه
عشرين عاما دون أن يُقيَضَ لك آسَمُهُ ما عرفت تعدّ أنك في صحبة هذا الذي
لا يبلغه العجب .

ويترك في الدنيا دويّا كأنما * تداول سمع المرء أئمله العشرُ
فلقد تحضر مجلسه فيقبل عليك يتحدثك فلا يرتفع بك الى نفسه وإنما
يتدلّى بكل حديثه الى نفسك ، فتراه يدّرجك في قولك ، ويكملك من جنس
كلامك ، ويباريك على قدر فهمك حتى تنصرف عنه وقد هيا لك وهمك
أنه مثلك ؛ هذا اذا لطف الله بعقلك فلم يهينك لك أنه دونك !

وإنه إذ يتحدث اليك لتخلج معارف وجهه حتى ليتمثل لك في شخص
تلميذ في السنة الرابعة الابتدائية ! وإن حدقيه لتضطربان في حركة أفقية ؛
على أنك لو تفطنت لأدركت أنها ليست حركة الحائر المتردد ، بل إنها لحركة
المتعرّف المتقرّي الذي يريد أن يستلّ منك ذات نفسك . وإنه ليُجسّمها من
جميع أقطارها ليبلّوها أيّا أهون عليه .

ولقد يخيل اليك لطف ثروت وتبسّطه في حديثه معك أنك مستطيع أن
تدسه في جيبك إذ هو قد دسّك من أول المجلس تحت نابه ! فاحذره أطلق
ما يكون وجهها وأنعم حديثا .

لعل ثروت باشا أبعد المصريين نفسا وأعمقهم ضميرا ، وقد حدثني من طالت به سمعته أنه من شباب سنه قد جعل يميز نفسه على إخفاء نيّاته ويأخذ معارف وجهه بالا تنم على ما في قرارة نفسه ، وانك لتحدثه في الجليّ ويحدثك فيها وهو متطلق الوجه ضاحك السن حتى ليكاد يملأ عليك المجالس أنسا ومرحاحا ، والله وحده يشهد ما في جوف هذا الهيكل من نواثر تهت أعصى الرجال ، وتذك أشمخ الأجيال ، حتى لقد دعاه بعض أصدقائه ، وهو ما برح في مطلع مناصبه ، « بطرس المسلمين » !

ولقد بالغوا في صمت أبي الهول وقدروا أن من خلف هذا الوجوم الطويل سرا طويلا . أما ثروت فانه أحذر من أبي الهول وأحرص على دَخيلة نفسه ، فان وجهه الضاحك منك لا لك ليقنعك بأن هذا الخلق لا يحقن من السر كثيرا ولا قليلا .

ولو أن إنسانا حدثك بأن لسان ثروت لم يسقط من ثلاثين سنة بكلمة واحدة لا يريد هو أن يُطلقها بكل معناها وما تنصرف اليه من وجوه المغازي لما كان في قوله متريدا ولا غاليا .

ولقد تُعوزه موهبة الخطابة والتفجّر بالقول ؛ على أنه اذا ارتجلت عليه طارئة خطاب الجُمهرة أرسل الكلام ، في أدق المواقف وأحرجها ، بليغا سلسا نيرا يروعك برشاقتيه في التحرف عن كل ما لا يؤذن به للسياسي وإن فُسح فيه للخطيب .

وهو بمدُّ رجل حَسَنَ المَلَقِ كريمَ المقال وافر الأَدب .

جُمُ التواضع والدنيا بسُودده * تكاد تهترّ من أطرافها صَلَفًا

وإنه لَيُقبَل عليك بكل ما عنده من الرقة وإظهار المودّة وشدّة المواتاة
حتى لتجدنه قد أصبح قطعة من قلبك ؛ ولتحسبن أنك أصبحت أيضا قطعة
من قلبه ، ولعلك لست منه في شيء أبدا !

وسبحان من قَسَمَ الحُظوظ ! فلو أن لى أُمّية في خلق الله لتمنّيت عليه
تعالى أن يمزج عدلى بثروت ، على نحو ما تتمزج بعض النقابات والبنوك ،
حتى إذا اتحدا وتمت « لخبطتهما » أحدهما بصاحبه شق هذه العجينة
الى شخصين ، وسوّى منها رجلين ، إذاً لخرجا أحسن الرجال ، ولتحقق كل
ما عَقِدَ بهما من الآمال ؛ اللهم آمين ! ...



وقد بدت مخايل النجابة على عبد الخالق ثروت طفلا حتى إذا آستوى
لِسِنّ التعليم سَلَكَ في المدرسة التوفيقية فكان يَمْلِكُ (الأُولية) غالبا على سائر
لِدّاته التلاميذ ، وأحرز « البكالوريا » في سنة ١٨٨٨ ، وخرج في أوائل من
أحرزوها لِعامِهِ . وقد حدّثنى من رآه تلميذا في مدرسة الحقوق يزور مع
والده المرحوم اسماعيل باشا عبد الخالق عالما من أجَل علماء عصره ، فاذا هذا
الفتى يجادله في أمور من أمور الدين مجادلةً الأكفاء ، ويجاوره في تعاليل
أحكامه محاورَة النظراء ، حتى انبعث لسان الشيخ العظيم بتسبيح من خلق
هذا الغلام !

وبعد إذ تخرج في مدرسة الحقوق نابغة رائعا اتصل بلجنة المراقبة القضائية وعين سكرتيرا للمستشار القضائي فكان كل التشريع المصرى قرابة ثلاثين سنة من وضع عبد الخالق أو باشتراكه ؛ فليس عجيبا أن يدعى عبد الخالق ثروت في هذا البلد أبا القانون .

وكان مستشارا في الاستئناف ، وكان مديرا لأسبوط ، وكان نائبا عموميا ، ثم كان وزيرا للحقانية في وزارة رشدى من صدر سنة ١٩١٤ الى صدر سنة ١٩١٩ ثم استقال مع صحبه الذين استقالوا مشايعة للثورة وحفاظا لهنضة الوطن . فكان في كل المناصب التي وليها لا يعمل إلا بالقانون ولا يؤثر إلا حكم القانون مهما اختلفت عليه ألوان الاعتبارات ؛ فقد اتصل القانون بعصبه وجرى في نفسه مجرى دمه ؛ ولعل ما أخذ به ثروت باشا بعد إذ اضطلع بأثقل عبء سياسى من تردده في بعض مواطن الإقدام ، إنما كان الوزر فيه كله على حرصه على القانون وتحريمه ألا يتحرف عنه في كل مذاهبه ، فان للسياسة أحيانا ميلا غير سبيل القانون . وعلى كل حال فاذا عدت السياسة هذا على ثروت فسيعدّها له النبل ومعالي الخلال .

وكان ثروت وزيرا للداخلية في وزارة عدلى باشا (سنة ١٩٢١) وقائما مقام رئيس الوزراء في أثناء غيابه في مفاوضة اللورد كرزن ، فلما قطع عدلى باشا هذه المفاوضات عاد الى مصر فقدم استقالة الوزارة . واستوحش ما بين مصر وانجلترا ؛ وسكت المنطق من حيث تكلم الحديد والنار ، وأنطلقت القوة تفعل في هذا البلد ما تشاء ، وقُتلت الأحلام في مصر وانجلترا معا ؛

وَعُمِّتْ عَلَى النَّاسِ مَذَاهِبُ الرَّأْيِ هُنَا وَهَنَّاكَ . وَلَا بَدَّ مِنْ حُلٍّ ، فَلِكُلِّ سَائِلَةٍ
قَرَارٌ ، فَأَبَى دَاهِيَةُ الرِّجَالِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْحُلُّ عَلَى حِسَابِ الضَّعِيفِ ! ...

لَا أُدْرِي وَلَعَلَّ أَحَدًا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَدْرِي كَيْفَ كَانَ أَبُو الْهَوَلِ يَقْلِبُ
الرَّأْيَ ، وَمَا كَانَتْ تُحِبُّ خَلَجَاتُ وَجْهِهِ مِنْ فَنُونِ الْحِيلِ ، حَتَّى إِذَا أَسْتَوَى لَهُ
الرَّأْيُ كُلُّهُ تَجَمَّعَ فَضْرَبَ تِلْكَ الضَّرْبَةَ الْهَائِلَةَ الَّتِي صَدَعَتْ قِيُودَ مِصْرَ وَأَطْلَقَتْهَا
فِي الدُّوَلِ دَوْلَةً مُسْتَقِلَّةً ذَاتَ سِيَادَةٍ وَسُلْطَانٍ ، وَسُرْعَانِ مَا آذَنْتِ انْجَلَتِ الدُّوَلُ
بِانْتِهَاءِ حِمَايَتِهَا عَلَى مِصْرَ ، وَسُرْعَانِ مَا آذَنَّا جَلَالَهُ الْمَلِكُ بِاسْتِقْلَالِ الْبِلَادِ .
وَشَرَعَ ثُرُوتُ بَاشَا يَسُنُّ لِلدُّوَلَةِ دَسْتُورًا قَوِيًّا لِأَنَّ مِصْرَ الْفَتَاةَ تَأْتَفُ الْعِيشَ
إِلَّا فِي كَنْفِ بَرْلَمَانٍ . وَهَذَا الْبَرْلَمَانُ يَعْمَلُ وَيَسْعَمُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ حَتَّى تَحْيَا
مِصْرُ أَعْلَى الْحَيَاةِ .

عَلَى أَنَّهُ مَا بَرِحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ انْجَلَتِ مَسَائِلُ جَلِيلَةٌ ، وَإِنْ رَجَالًا فِيهَا لِيَتَرَبَّصُونَ
الْفُرْصَ لِيَتَحَيَّفُوا مِنْ حَقُوقِنَا ، فَمَا أَحْوَجَنَا فِي أَمْرِنَا مَعَهَا إِلَى عِزْمِ الْأَبْطَالِ .
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُخَيِّبَ رَجَاءَ مِصْرَ فِيهَا سَعْدٌ ، وَفِيهَا عَدْلٌ ، وَفِيهَا ثُرُوتٌ ، وَفِيهَا
مَنْ يُحْفُّ بِهِمْ مِنْ رَجَالَاتِ عِظَامٍ .

فَاتَّحَى مِصْرَ وَلِتَبْلُغْ كُلَّ أَمَانِيهَا فِي ظِلِّ ائْتِلَافِهَا النَّبِيلِ .



ثورة في هيكَل رَجُل !

ابراهيم الهلباوى بك

ما صدق أولئك النّفر من العلماء حين زعموا أن هناك تشابها بين النفس والجسم ، وتشاكلا بين الروح والهيكَل الذى يحتويه ، وإلا كان الهلباوى هذا من أحلى الناس وجها وأبهام طلعة فإنه ولا مِرْيَة من الطّف خَلَق الله نفسا وأخفّهم رُوحا

شيخ يتّراخف على السبعين إن لم يكن قد اقتحمها فعلا ، لم تُوجّه الطبيعة أية عناية فى تكوينه الى شكله ودّلّه ، فاذا أنت جلست اليه مع هذا خلبك بلطفه ، وشعرت بأنه تَسَرَّب فى كل نواحي قلبك حتى أصبح قطعة من نفسك. وإنه ليدرك بخفة روحه التى تكاد تطير، أشاء حديثه ، بأطراف جسمه — قول أبى تمام :

ماذا تقولين فى شيخ فتى أبدا • وقد يكون شباب غير فتيان

وأنا اذا تحدثت عن الهلباوى أشعر ويشعر الناس معى ، برغم أنفى وأنف غبرى ، أننا فى رجل غير عادى ، أو بعبارة أخرى فى رجل عبقرى .

ولعله لم يفتّرِق الناس فى هوى امرئ — اذا استثنينا اسماعيل باشا صدق — افتراقهم فى الهلباوى ، فقد عاش مدى عمره يحبه ناس أشدّ الحب ، ويُبغضه ناس أشدّ البغض ، الا أن هؤلاء وهؤلاء لا يسعهم جميعا الا التسليم بأنه رجل عبقرى ، بل لعله لم يجتمع له فى القلوب كلّ هذا الحب وكلّ هذا البغض الا لأنه رجل عبقرى !

(١)
 طويل القامة، عظيم الهامة، بائن الطول، مفتول العضل؛ شديد المنة^(١)
 قوى البنية . رأيته يَخْطُبُ النَّاسَ عصر يوم قَدِمَ فى صباحه من أعلى الصعيد،
 والهلباوى اذا خطب خطب بِكُلِّه : بلسانه، وبعقله، وبخُناعه، وبعصبه،
 وبرأسه، وببيديه، وبرجليه أيضا ! وله صياح يَقْدُ أَصْفَقَ الحناجر . ثم تدلَّى
 عن المنبر بعد أربع ساعات كاملات فى كل هذا البلاء وهو أشدُّ وأقْبَى من
 أَكْثَر مَنْ سَمِعُوهُ ان لم يكن أَقْبَى مِنْ سَمِعُوهُ جميعا . وما شاء الله كان ! ...
 شديد العقل، حاضر البديهة، قوى الذاكرة، ملتهب الذكاء . على أنى
 لا أدري أنفى كل هذه بحاجات لسانه أم لا ؟ ! ...

محام أى محام، وخطيب أى خطيب ! لقد يقف فى الجماهرة والناس
 أَكْثَرُهُمْ على غير رأيه فيما يحول فيه ، فما يزال يدور على مواطن إحساسهم
 يَحْسُها من ههنا ومن ههنا فى رشاقة وخفة قول ، ولطف شاهد ، وبراعة
 نكتة ، حتى اذا آنس من الآذان تطامنا من جَاح واسترخاء بعد عصيان ،
 هم منها بِكُلِّه على النفوس فظل يَهْزُها هزاً ، ويرْجُها رجاً . فما القُحْل اذا
 هَدَرَ، ولا اللَّيْث اذا زَارَ، ولا البحر اذا زَنَرَ، بأشدَّ صَوْلَة على الأسماع من
 الهلباوى يتدفَّق فى الكلام، فما يروعك من هذه الجماهير الواجعة الا أن تراها،
 برغمها، قد أرسلت حناجرها بالهتاف وبعثت أَكْغُها بالتصفيق !

والهلباوى خطيباً يَشْتَرِي هَوَى سامعيه بأى تن : فهو يَجِدُ ويَهْزِلُ ؛
 ويثب ويحجل ؛ ويضحك ويبكى ؛ ويعلو ويُسِف ، ويثقل ويخف ؛

ويكتشف ويشف . وينظم الدرر ، ثم يرمى بالشرر . وبينما تراه فى وداعة
العصفور ، اذا به فى شراسة الثور . كذلك يتشكّل هذا الشيخ فى خطبه
ويتلّون لكل مواقع الكلام !

واذا كان الهلباوى خطيبا عظيما فهو ممثّل أعظم !



نجم الهلباوى من أسرة فى الغربية كريمة العرق الا أنها رقيقة الحال ، فلما
يُقع قذفت به الى الأزهر فعكف على مدارسة علومه ، وقد عُرف بين
لِدّاته ، من صدر أيام الطالب ، بالفطنة وحدة الذهن والاحتجاب على تحصيل
الدرس . وعلوم الأزهر ، كما تعرف ، تقوم على الجدّل والمكائرة بالوان التّدليل ،
وكان الهلباوى فوق « أزهريته » تيك عنبدا فى رأيه مُباحّا حتى على أشياخه
فى حوارِه ، جريئا على مخاصمتهم فى كثير مما تَسْقُط عليه أفهامهم فى مذاهب
الكلام .

وهبّط المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى مصرّا فاتصل به الهلباوى كما
اتصل به كثير من أهل المواهب والذكاء . وكان يُعلمهم مسائل من الحكمة ،
ويلقّنهم فصولا من فلسفة اليونان كما نقلها العرب عنهم . وقد مدّ السيد
الأفغانى أذهان طلبة الى كثير مما يُحيط بهم ، ففجّر عقولهم ، وجرّأ قلوبهم ،
ودرب السنتهم على المنطق والمغالبة بفنون الجدّل ، وعودهم الجهر بالرأى
دون الخوف من أحد . وفى ثانيا هذا كله كان يبعث فى نفوسهم دعوة سياسية
جريئة .

ونخرج الهلباوى بعد هذا الى ميدان العمل فأتصل اتصالاً أوفى بالبيئات
التي تفهمّت حياة الغرب وتروّت علومه الحديثة وأخذت أحلامها بمنطقه
الطريف . وهكذا أصبح الهلباوى خليطاً من كل ما تقلّب فيه من أطوار الحياة !
وما اجتمعت هذه الأسباب كلها في نفس الا اضطربت وثارَت فلا
تعود تستريح الى قرار . فلا عجب اذا كان الهلباوى ثورةً دائمةً في هيكل
رَجُلٍ ؛ والبركان دائم القوران ، فهو ينفجر من حين الى حين وإن احتقن
الى حين .

ولقد يكون ما يظنه كثير من الناس تردّداً في الهلباوى أثراً من آثار هذه
الثورة النفسية ، فان الثورة لا تعرف نظاماً ولا تستوى في شيوها لطريق .
ولعل موقفه يوم دنشواى كان مظهراً من مظاهر هذه الثورة ، على أنها
هذه المرة كانت أدنى الى تحدّى الجمهور منها الى ما اعتاد من تحدّى السُلطاء
من أهل الحكم ؛ وفي كل حال فقد كانت منه كبيرةً ، ولعلها كانت سقطة
الرجل العظيم .

على أن أحداً لم يجرؤ على أن يُجِيل تردّد الهلباوى ، الذى قالوا ، على طلب
منفعة شخصية من منصب أوجاه أو مال .



وقد صحب القضاء المصرى الحديث ودارجته من أول نشأته الى اليوم ،
فلم تكد تقع قضية ذات شأن في البلاد إلا دُعِيَ لها الهلباوى فاقن وأبدع ؛
وله في هذا الباب جولات معدودة له على وجه الزمان . فلا عجب اذا عدّ
صحيفةً من أحفل صحف القضاء المصرى وأظهرها حواشى ومتونا .

وقضى هذا الزمن الطويل محاميا واضحا أميناً مُجداً فى عمله حريصاً على أداء واجبه، لم تُخصَّ عليه كَرَّةٌ واحدة مما يَجْمَحُ وجه المحاماة .

ثم هو فى علاقاته الشخصية شديد التوفى لأصدقائه حريص على مودتهم لا يقصر فى أداء أى واجب لأى كان منهم . ولا أحسب الهلباوى قد عادى أحداً أو عاداه من الناس أحد إلا فى شأن عام .

وإنى كلما جاش فى نفسى الحقد على الهلباوى بك هرولت الى مجلس النواب فشفيت صدرى برؤيته ، بعد كل ذلك ! ، وقد امتثل حقاً لحكم النظام ، فهو يرفع إصبعه بطلب الإذن كلما أراد القعود أو القيام ، وكلما أراد السكوت أو الكلام ، وكلما طلع أو نزل ، وكلما عطس أو سعل ، وكلما تحوَّرف أو تخطَّى ، وكلما ثاءب أو تمطَّى ، وكلما ذلَّ أكارعَه ، أو قتل أصابعه . ولا بد من الخضوع والطاعة ، لكل من ينتظم فى سلك الجماعة ، وإلا ساء النظام ، واضطرب جبل الأحكام !

وكذلك أنعمت الحياة النيابية ، هذه الثورة الشيخة الفتية .

وإنى اذا لم أصفه فى موقفه الجديد بأنه أصبح « كالوحش يستدنيه للقبض المحل » ، فإنى أقول له : « ولا بدَّ دونَ الشهد من إبرِ النحل » !!!



ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

الدكتور محبوب ثابت

لا شك في أن الدكتور محبوب ثابت يعدّ، بحق، في ميراثنا القومي، ولو — لأذن الله — جرى عليه القَدَر لكان لا بد للأمة من (دكتور محبوب ثابت) بأى طريقة من الطرق . نعم هو في ميراثنا القومي لا يقلُّ عن آثار سقّارة، وجامع السلطان حسن، ومقابر الخلفاء . ولقد أصبح على الزمان جزءاً من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل، ووفاء النيل، وركبة الرؤية، وشم النسيم ! . ولما فكّر المرحوم محمود بك رشاد في جعل العَلَم المصرى محلياً بصور بعض الآثار القديمة فرعونية وإسلامية لم يرَ المصوّر بداً من أن يرسم بجانب الهرم وأبى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبى السعود صورة الدكتور محبوب ثابت .

والدكتور في المصريين كأنجلترا في الأمم، كل منهما يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضى على وجه الأيام ! فإذا كان الكلام في النيل وما عسى أن يجتازه عن مصر خزان مكوار تولّى « الدكتور » الكلام وملّكه على جمهرة المهندسين ! وإذا كانت الثورة تصدّر الدكتور لجنة الوفد المركزية، وكلما أنتشرت في البلد مظاهره كان ناظور^(١)تها الدكتور، وكلما ساروا « بضحية حرة » كان الدكتور أول المشيعين، فإذا كان اجتماع في الأزهر كان الدكتور فارسه المعلم وعُدَيْقه المرجّب . فإذا تعانق الهلال والصليب، استأثر

(١) الناظورة : سيد القوم المنظور اليه منهم .

الدكتور من عناق الأب سرجيوس بأكبر نصيب . فاذا وجدَ دَهْمًا
 المصريين على الأرمن وهم بعضهم بلباقع الأذى بهم طاف الدكتور بعربته
 (ومكسويته) على دورهم فنقلهم وعيالهم ومتاعهم وأثاث بيوتهم الى مائتهم .
 فاذا غضب الأروام من أن بعض الرعاع أصابوا منهم على وهم أنهم أرمن ،
 شَخَّص الدكتور في الركب الحافل إلى دار قنصلهم فخطب جمعهم باسم مصر
 وماذهم حبال المؤدة، وعقد معهم، باسم الأمة والحكومة أيضا، فنزلت
 المعاهدات . واذا كان جمع الأموال للوفد أغلق الدكتور عيادته « بالضبة »
 ودأجر الى قنا فلبث الأشهر الطوال، يجمع ما تحتاج اليه القضية من جليل
 الأموال . فاذا كانت مشاكل العمال أبى الدكتور الا أن يتفرد بها من دون
 الناس جميعا، فانتفض نقيبا لعمال العنابر، ولغافى السجاير، وسواقى الأتومبيلات ،
 وشيالى المحطات ، ونُدُلُ ^(١) الفنادق والقهوات ، وجميع طائفة المعمار، وأصحاب
 الحوانيت من كل بدال وبقال وجزار، وعمال المطابع ، وكناشى الشوارع ،
 وصُناع الخيم ، ومساحى (الجزم) ، ولو فكرت طوائف الجُرذان والسبناير،
 وجماعات الحُملان والصراصير، فى أن تتخذ لها نقابات لتمثل الدكتور ثابت
 فيها خطيبا، ثم استوى لها بفضل الله نقيبا !

وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل ما فى البلد من هابط
 وصاعد، وقائم وقاعد، وغاد ورائح، وسائح وبارح، ودارج على متن القبراء،
 وسائح فى جوف الماء ، وطائر فى جو السماء . فاذا كانت هناك منطقة
 خارجة عن اختصاص الدكتور محبوب فهى عيادته فقط ! ذلك بأنه ليس

برجل أثره، بل هو رجل إشار يُعنى من أمر قومه بكل دقيق وجليل، أما خاصة شأنه فلا يعنيه منها كثير ولا قليل .

ولا أحسب رجلا في مصر ولا في إنجلترا مشغولا بالسودان شغل الدكتور ثابت^(١)، فحديث السودان يجري منه مجرى النفس، ولو هُيَّ له، أو لو هُيَّ لك أنت، على الأصح، أن تستمع له لحدثك في شأن السودان ثلاثين عاما متصلة لا ينقطع ولا يتحبس، ولا يتلجج ولا يتلعثم، ولا يمل ولا يكأ، ولا يُعطى ولا يزَل .

وللدكتور في مشكلة السودان نظرية طريفة جدا، فانه يرى أن كل العقدة فيها إنما هي في إقناع المصريين وخدمهم بقبوله وإدخاله بلا قيد ولا شرط في ملكهم الخاص، فهو كلما رأى رجلا أو امرأة أو صبيا أو وليدا ماقبل عليه « يقنعه » في قوة وحاسة بقبول السودان، وتدفق ما شاء الله أن يتدفق بالوان المحجج لحق مصر في السودان وحاجة مصر الى السودان، وما أنفقت مصر على فتوح السودان، ومن أبلى من أبناء مصر في حروب السودان . ولو أن رجلا مسح السودان شبرا شبرا، وذرعه فترا فترا، ما كان أعلم به من الدكتور ثابت، على أنه لم يره ولم يزُرْه طول حياته مرة واحدة . وقال له بعضهم يوما : لقد جعلت السودان شغلك يا دكتور حتى أصبحت رمزَه في هذه البلاد، فهلا زرتَه وتفقدت أهله؟ فقتل عُشُونَه وقال : لا حاجة بنا الى هذا فقد عرفناه وخبرناه ... ولا أدري أكان هذا من الدكتور ورعا أم كسلا !

(١) وكان هذا قبل أن ينتخب عضوا في مجلس النواب .

ويظهر أن الدكتور ظن بعد لأي أن المصريين غير مقتنعين بضرورة «أخذ» السودان فشخص إلى سوريا ليقنع أهلها بضرورة «أخذ» المصريين للسودان! فقد بلغنى أن ذلك كان حديث الدكتور هناك فى مساءه وصباحه، وغدوه ورواحه، وموضوع مفاكهاته وأسماره، فى مقامه وتسياره .

ورأى الدكتور فى «أخذ» السودان أبدع من رأى ذلك الفلاح المكارى إذ قال لآخوانه يوما: كيف لا تهتئوننى؟ فقالوا: بماذا؟ فقال: باننى سأزوج بنت السلطان! فقالوا له: وهل قضى الأمر؟ قال: بل نصفه؛ فانى وأبى قد رضينا ولم يبق الا هى وأبوها! ... أما الدكتور — أعزه الله — فانه لا يرى بين المصريين وبين أخذ السودان كاملا بلا قيد ولا شرط، ومن فوقه ملحقاته وملحقات ملحقاته الا أن يرضوا هم! ... وقد قلت له يوما: ألا جعلت بعض همك إقناع الانجليز أيضا بترك السودان لأصحابه المصريين؟ فاجابنى بكل قوة وثقة: لا! ما يقولوش حاجة!!!

حقا إن هذا الرجل أمة وحده، وانه لعبقري لا يتدلى الى منطق الناس وأسباب تصورهم، فإن له قياسه وتقديره، وله منطقته وتفكيره؛ وله أسلوبه وتديره. وأظهر صفاته فى هذا الباب أنه لا يحفل بما يسمونه الواقع كثيرا ولا قليلا، فحسبه أن يشتهى الأمر فيقدره وإفعاء، أمكن ذلك الأمر أو استحال، ومثله من تخيل ثم خال. ولقد كان فى سنة ١٩٢١ يسعى جاهدا فى أن ينتظم عضوا فى الوفد المصرى، وقد وسوس له شيطان من الإنس بأن عدلى باشا

فَكَرَّ في تعيينه مستشاراً في الوفد الرسمي لولا أن انتهى إليه أن سعد باشا سيلجئه بالوفد المصري ، فكان جوابه على الفور : مافيش مانع ياسيدي ! وهكذا طمِع الدكتور في أن يكون عضواً ، معاً ، في الوفدين المتقاتلين سنة ١٩٢١ !

وأذن الله ودخل الدكتور في الوفد المصري طبعة ثالثة أو رابعة ، بعد ما عصفت القوة بحملة رجاله سنة ١٩٢٢ ، ثم بدا له ، لأمر ما ، أن « يشلحه » فكانت تخرج النداءات والمنشورات متهورة بتوقيعات رجال الوفد وليس اسم الدكتور فيها إذ الدكتور مصمم على أنه ما برح عضواً في الوفد يلتبس « لعضويته » المعاذير بأنه ربما دُعِيَ للتوقيع فغاب ، أو أرسل إليه فلم يبلغه الكتاب ، على حد قول الشاعر :

نحن قوم اذا دُعِينَا أجَبْنَا * واذا نُتِسَّ يدْعُنَا التَّط ...
ونقل علَّنَا دُعِينَا فَعَبْنَا * وأنا فلم يحذنا الرسول !

وظل الدكتور برغم طول المدى وذُيُوع الأخبار « يشلحه » مصمماً على أنه مازل عضواً في الوفد . وقد جادله بمحضري في ذلك قومٌ فكانت كل حجته أن محمد افندي كذا قابله يوماً فحياه وقال له : « يعني ما حدثش بيشوفك يا دكتور ؟ ! » ومحمد افندي هذا يزور السيد حسين القصبي أحياناً ، فلا بد أن يكون سَمِعَ هذا من الوفد ، فكيف تزعمون بعدها أنني لم أبق عضواً في الوفد ؟

هذا كلام له خبيء * معناه ليست لنا عقول !

ومن أظرف نوادره أنه في غيبة الرئيس الجليل حدثت بينه وبين بعض رجال الوفد جَفْوَةٌ، فانقطع عن زيارة بيت الأمة، فقليل له : إن السيدة أنيسة الرشيدى نازلة بدارك وهى تستقل كل يوم مركبتك الى بيت الأمة، والناس كلهم يعرفون « مكسوينى » وإنهم ليرونه هناك فلا يشكّون في أنك الزائر ! فقال : لقد نهنا على الأوسطى « على » اذا نزلت السيدة أن يقف على الرصيف الثانى احتجاجا !

وكانوا يرشحون لمناصب المفوضين والقناصل لتمثيل مصر في البلاد الأجنبية، فتقدم الدكتور؛ فقليل له : ولكك حَذَقْتُ الطب ، أما التمثيل السياسى فشئ آخر، فقال : ومن أخبرُ به منا يا ولدى ! لقد عجنّاه وخبزناه فقد كُنا في (جنيف) وكان يجلس معنا أحيانا على بعض قهواتها سكرتير قنصل إنجلترا وتناول الشاى معنا مرارا ! ...



والدكتور محبوب ثابت عريض الألواح بعيد مدى العظام لولا أن في جسمه رُهولةٌ، أميل الى الطول، فاذا مشى خطه أحذب وما به حذبة ، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لامن ثقل الستين ، عريض الجبهة الا أن أسفل وجهه أعرض من أعلاه . يُرسل سَبَلَتَه وعُثُونَه وشعرَ عَارِضِيَه في هيئة لطيفة مقبولة ، وله عيناان رقيقتان ترسم في بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى الى إسناتها ، وهما دائماً الحركة والاختلاج . وهو بعد طيب القلب ، مكفوف الأذى ، عذب الروح ، حلوا الحديث ،

ضحك السن ، يتحرى في قوله غريب اللغة ، ويلتمس الشاهد من ماثور شعر العرب ، وقد يحىء به أحيانا مكسورا غير مُتَرَن . أما قافاته فحدث عنها ولا حرج . جُرْتُ بداره مرة فرأيت بنتين صغيرتين لتلاعبان ، فقالت احداهما للأخرى : هذا بيت الدكتور ، فسألتها : ومن الدكتور ؟ فقالت لها : ألا تعرفين الدكتور الذى يقول يا بنت هاتى القبرة ! (الإبرة) .

وفيه ذكاء حاد ، يديم القراءة والنظر فى الكتب وكأنه يحفظ بظاهر الغيب كل ما يقرأ ، تعرف هذا من علمه الواسع الذى يكاد يستغرق كل ما فى الدنيا وكل أسبابها ، الا أن علمه ، مع الأسف ، يختلط ببعضه ببعض حتى ليخيل اليك أن رأسه « كتيبخانة مدشوتة » . ولو قد ملكت أمره ، وكانت لى بسطة فى المال والسلطان لدعوت بمستشرق ألمانى فنى لينظم هذه المكتبة العظيمة فيضم كل شكل الى شكله ، ويجمع كل جنس الى جنسه ، ويرد كل معنى الى بابه ، ويصف كل فن فى « دولابه » .

ومن أخص صفات الدكتور ثابت أنه لا يكاد يشعر بمرور الزمن ، وإذا كان من آية يوشع أن الشمس رجعت له مرة ، فإن من آية دكتورنا عند نفسه أن الشمس تثبت له موضعها على طول الزمان ، فانت اذا دعوته ليتناول الغداء معك أقبل عليك الساعة بعد الظهر حتما فى غير ورع ولا اعتذار . ولقد دعاه صديق لى وله لتناول الافطار فى رمضان ولبثنا ننتظره برهة فلما أيسنا منه أفطرنا ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبل الدكتور مشمرا للفقور ، وما كان أشد دهشته « يقينا » اذ علم اننا أفطرنا من أربع ساعات فانطلق يزجر و « يزوم » ، ويعتب ويلوم !

ومما يذكر للدكتور في هذا الباب أنه ما أدرك قط القطار الذى يعتم
السفر فيه ، حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه اذا آذنهم بالسفر الى بورسعيد
في قطار الساعة ٧ صباحا شخصوا إلى المحطة لتوديعه في قطار الساعة ١١ ،
واذا آذنهم بالسفر إلى الاسكندرية في قطار المفتخر كانوا في وداعه بقطار
الساعة ٧ مساء .

وسافر مرة إلى الاسكندرية لوداع الأنسة سنتيا موير الصحفية الأمريكية
وأخذ تذكرة للذهاب والإياب على أن يعود من يومه فلبث هنالك قرابة شهرين
ونصف شهر .

ولو قد ذهبنا نعد لطائف الدكتور محبوب وبدائعه ، لما اتسع للحديث
مثل هذا المقال . وإنه ليجعل بنا في موضع الإنصاف أن نقرر أن الرجل
شريف النفس ، عفيف الحيب ، جمع للنهضة المصرية من مديرتى جرجا وقنا
قرابة خمسة عشر ألف جنيه أبلغها كلها محلها لم يقطع منها درهما واحدا
حتى ولا لأجرة القطار وسائر نفقات السفر وهى غير قليلة ، فضلا عما احتسب
عند الله من خراب الأجزاء ودمار العيادة وفرار الزباين وسرقة شبابيك
الدار .

وهو لا يتعمل للدرهم ولا يجرى وراءه ! أما اذا سقط الدرهم الى جيبه
فلا الى رُجعى ، فثله في ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفار ، فاذا سقط
اليها الفار ، فهيهات ليس له منها فرار . وله في هذا الباب أحاديث مذكورة ،
وأفاكيه منشورة .



وبعد فالدكتور محبوب ثابت أمةٌ وحدَه بما اجتمع له من الصفات،
وما أحشَد لديه من فنون المعلومات، وما تكدَّس عليه من ألوان التَّبعات .
وهو إذا اعتبر لنفسه حق التحدُّث على كل شيء، والدخول في كل دقيق وجليل
من شؤون البلاد، فقد وجب بازاء هذا أن يكون لكل مصرى فيه نصيب .
وانى لأقترح على الحكومة أن تُصدِر قرارا بنزع ملكيته وإضافته الى المنافع
العامة، وأعلمها، بعد العمر الطويل، تجعله من نصيب دار الآثار، حتى يظل
رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الأعصار !

الدكتور محبوب أيضا^(١)

وإن الحديث ليحلو دائماً في الدكتور محبوب راسباً في الانتخاب ،
وعضواً في مجلس النواب ، كما يحلوفيه مُلِحاً في طلب السودان ، ومشغولاً
عنه بالكلام في السَّمِاط والحِوان . واني لأوفّر هذا الحديث على عتاب صديق
صاحب « الكشكول » على قسوته هذه الأيام على الدكتور وإغلاظه القول
فيه بعض الأحيان . والأستاذ فوزي يداين صاحبه بقسط كبير من نجاحه
في الانتخاب ، فلقد طالما أيده بشديد القول في جريدته القوية ، كما آزره
بشخصه في الاسكندرية إذ حَزَبَه الأمرُ وأعوزه النصير .

والأستاذ انما ينقم من الدكتور أنه حين استوى على كرسى في مجالس
النواب تكترش لسانه في شدقه وتقبض ، فلم يعد يهتف بالسودان
ولا بالحقائق السودانية ولا بشيء مما كان يُمنّي به ناخبه ، ويصدّع به
رؤوس المختلفين الى (صوت) ، وقهوة الشيثة ، ونقابة العمال ، ومطعم
(الكوارع) ، وعلوانى محطة الرمل ، والمتزّدين على عبادته من كل أرمد
العين ، ومضروب بالفالج ، ومقروح الكبد ، ومن خرج به جَرَب أو بَرَص ،
وشاك مرض القلب وخفقانه ، أو وجع الضرس وضربانه ، ومصدورة
تدارك بالعلّة زفيرها ، وماخض علاصياحها وزحيرها . وحين أظفره ناخبوه
بمقام النيابة نسي وعوده المعالجة بالسمن والعسل ، وخفر عهوده لأهل

(١) مقتبس مما نشر بجريدة السياسة اليومية في احدى (ليالى رمضان) بمناسبة حملة الكشكول

مينا (البصل) ؛ وترك حديث السودان في مجلس النواب ، وأقبل على حديث (الكفاة) والكباب ؛ وترديد ذكر الفطائر المدحوة ، والقطائف (المحشوة) ؛ والدجاج والسكابيج ، والدراج والطهايج ؛ واللحمان المحمرة ، (والطوجن المعمرة) ؛ وكل ما يعالج بالسمن أو بالزيت ، وما يصنع في السوق وما يُطهى في البيت !!!

وما خفر الدكتور بالذمة ، ولا خاس بعهده للأمة ؛ فانما كل هم الدكتور كان من أمر السودان أن (يقنع) المصريين بضرورة أخذه ؛ وقد سعى الرجل في هذا ودعا ولبث في دعوته تيك سنين طوالا لا يكَل ولا يَمَل ، ولا ينقطع ولا يحتبس ، ولا يتتبع ولا يعثر ، ولا يسكن ولا يفتر ، حتى إذا آتت دعوته أكلها (واقنع) المصريون كلهم (تقريبا) بأن السودان ضرورى لهم وبأنهم لا غنى لهم عن ماء النيل ، شمر ذيله وطار الى سوريا وظل دهرًا يُفشى فيها دعوته ، حتى إذا آمن السوريون كذلك بأن السودان ضرورى للمصريين عاد فأمسك عن القول في السودان وملحقات السودان . وما له يقول فيه بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ؟ ولو كنت لعمري مكانه لطلبت الى الأمة إحالتي على المعاش وأثبت في بطاقة زيارتي :

الدكتور محبوب ثابت

مطالب بالسودان سابقا وعضو مجلس النواب حالا

وحسبُ الرجل خدمةً للأوطان ، أن (أقنع) المصريين بحاجتهم الى النيل وحاجتهم الى السودان ! و«الوطنية» كما تعلم فنون ، والله في خلقه شئون !!!



فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ

الدكتور على بك ابراهيم

رقيقُ الجسم ، أدنى الى أن يكون هزيله ، أسمرُ اللون ، مستطيلُ الوجه ، غليظُ الشفتين في غيرهما ، واضحُ الثنايا ، لعينه بريق وفيهما جمال . متفتحُ اللفظ ، تاؤه بين التاء والطاء ، وزايه بين الزاي والظاء ، وادِعُ النفس ، هادئُ السعي ، خفيفُ الروح ، ظريفُ المجلس ، لا يجد العُنف الى عواطفه سبيلا ، يَقصد في طربه ، كما يَقصد في غضبه :

فيه حدُّ الفتى وحلمُ المزنكي * وحجى الكهلِ وارتياحُ الغلام

ولعل هذا الهدوء العجيب من أبلغ العناصر في نجاحه في عمله المرعب الدقيق . وشأنه كشأن جميع النوايع في الدنيا : ليس لهم من مظاهرها ما يدل على أخطارهم ، إلا أنك لا تستطيع ألا تلاحظ أن لهذا الرجل أصابع ليست من جنس أصابع سائر الناس ، فانها تسترعيك بطولها وسراحتها وانسجام خلقها ، على أنه اذا تحدث رأيتَه يستعين دائما بسبابته ووسطاه فما تزالان كالمِقَصَّ في انفراج والتثام الى أن يفرغ من حديثه ، حتى إنك لتعرفه من أصابعه كما تعرفه من وجهه ، ولو قُدِّر لمصوِّر أن يرسم أصابعه وحدها لدلت عليه الى غاية الزمان .

لقد تسنم غارب المجد، وبلغ من الشهرة ما تتقطع دونه علائق الآمال،
وهو مع هذا لا يحفل قط بما كان ولا بما سيكون ولا بما سوف يكون،
ولا تحسبه يطمع في أكثر من أن يعيش في غمر الناس كسائر الناس .

يا له من رجل ! لقد تكون في مجلسه معه غيرك، ولقد تكون معه وحدك
وأنت مفيض أسبابه ومطلع سره؛ فتعرض ذكرى فلان الجراح فيقول لك :
« بالك فلان ده، ويومئ لك بأصبعيه سألقتي الذكر، ده والله جراح ماله مثيل !
ده شيء من فوق التصور ! لو كان للجعد ده بخت ما كانش حد زيه في الدنيا ! »
يقول هذا في رضا وصدق نفس وراحة أعصاب ! ... والواقع أنني لا أدري
أكان هذا كله قد جاءه من طبيعة صفاها الله من كل ما يتداخل أرباب
الفنون، أم أنه تمكن من نفسه واستوثق من أنه لن يتعلق أحد بغيره مهما
افتن لإخوانه الجراحين في ألوان الشهادات !

ثم هو شديد العطف على إخوانه الأطباء عامة، عظيم العون لجماعتهم،
رطب اللسان فيهم .

ومن أظرف نوادره أن رجلا من كبار الأغنياء قدم إليه يشكو علة
لا تتصل بالجراحة؛ فقال له : يا عم لا شأن لي بمرضك فاذهب الى الدكتور فلان
أو الدكتور فلان أو الدكتور فلان، فهم الذين يحسنون «تشخيص» علتك
ويقدرّون على علاجك . فقال الرجل : بل إنما قصدت إليك أنت ولست
أرضى أحدا يداويني غيرك، وجئت معي بكذا وكذا من الأموال فخذ مني،
على أن تعالجني، ما تشاء ! فقال له الدكتور : وأنت اذا أعطيتني ما تشاء

فلن أداوى عليك لأنها ليست من عملى ولا نتصل بفتى إنما أنا رجل جراح؛
فألح الرجل وتضرع، فلما أعياه أمره قال له : اسمع يا عم، لو تلف (كالون) بيتك
هل تجيء له بنجار أم بكوالينى؟ فقال بل بالكوالينى، فقال له : مرضك هذا
أنا لا أعرف فيه، قال الرجل : فماذا تصنع أذا؟ قال له : أنا أفتح لك كرشك،
أكسر رجلك، أقطع رقبتك ! . وهذا الذى أعرفه . فالصرف الرجل مقتنعا
راضيا ! .

ولست أحاول أن أصف لك قدر الدكتور على ابراهيم ولا نبوغ مبضعه،
فحسبه أن سلم الناس اجماعهم له بأنه مفخرة من مفاحر هذه البلاد . ولقد
قلت لأحد الأطباء يوما : صف لى براعة الدكتور على ابراهيم؛ فقال لى :
أعرف أنك تحب الغناء وتهوى الموسيقى، ولو كان لك عرق فى فن الجراحة
وقدّر لك أن تشهد "عملياته" لوجدت لأنامله من الطرب مالا تجده لأنا مل
«العقاد» وهى منطلقة فى أوتار قانونه الحنان الطروب .

على أن نبوغه لم ينته الى حذق الطب والمهارة البارة فى فن الجراحة،
بل إن له فى كثير من «العمليات» ابتكارات من ذلك النوع الذى يؤثر
ويُدرس ويُحدث فى نظريات الفن أحداثا .

ولإنهم ليروون عنه جهدا عظيما فى متابعة الحركة الطبية فى العالم، فهو
كثير القراءة والنظر فيما يخرج فى هذا الباب من المجلات والكتب والرسائل،
حتى اذا وقعت له نظرية حديثة فاستوت لذهنه أقدم على تطبيقها بنفسه،
فكان نجاحه دائما كعزمه قويا جليلا .



وبعد فإن جهلاً أنب يظن امرؤ أن للعقريات في العالم أسباباً معينة معروفة ، فما كان هؤلاء العقريون أحمق من غيرهم أبداً ، ولا أكثر قراءة ، ولا أعكف من سواهم على الدرس والتجريب وتقليب النظر ، ولا أطلب من عداهم لتلك الأسباب المفروضة للبراعة والتبريز ، فلقد كان البحري شاعراً في سن العشرين كما كان شاعراً في سن السبعين ، وكان ابن المقفع كاتباً وهو ابن الثمانين عشرة كما كان كاتباً حين قبض وهو في الثامنة والعشرين ، وكان رفاييل مصوراً رائعاً يوم جالت يده بالنقش كما كان مصوراً في غاية عمره ، وكذلك كان علي إبراهيم جراحاً أول منجمه كما هو جراح اليوم ، إنما هي مواهب من الله تعالى يتخير لها من يشاء من عباده لم يتكشف العلم عن كنهها ولا سببها إلى اليوم .

وإنك لتجد الطبيب يُصيب دائماً في تشخيص العلة الا قليلاً ، وإنك لتجد الآخر يُخطئ دائماً في تشخيصها الا قليلاً ، ووسائلهما في الفن واحدة ، وحظهما من العقل والعلم وسائر الأسباب متكافئة . ذلك أن هنالك حساً دقيقاً غير تلك الأحساس المعروفة يكاد يتفطن به من آثره الله به إلى مطاوى الغيب ، فيقع الشيء في نفسه بحسبه إلهاماً لأنه لا يعرف له علة ولا يحيط منه لسبب ، ومن هؤلاء الذين اصطنعهم الله لهذه الموهبة الدكتور على بك إبراهيم .

ومما يذكر له أنه في سنة ١٩٠٢ لوحظت كثرة الوفيات في قرية موشة ، من أعمال مديرية أسيوط ، فنسبه مدير الصحة ، وكانت له به ثقة عظيمة ،

ليُحقق الأمر، وكان بعدُ فتي ناشئاً، فأدرك أنها الكوليرا، فكتب الى الصحة بهذا وأرسل رَجِيع بعض المصابين لتحلله، فلم ير «التحليل» أثراً للكوليرا، فراجعها وأرسل غيره، فكان الأمر كذلك، فصمَّم الفتي واستبدَّ من ناحية، وصمَّ أطباء مصلحة الصحة وكيماويوها من ناحية أخرى؛ ثم أبى العلم وأبى «التحليل» الصحيح إلا أن يُظهر رأى على ابراهيم على تلك الآراء جميعاً، وكانت الكوليرا التي عصفت سنة ١٩٠٢ بالبلاد عصفاً شديداً، والتي ألبى هو فيها، حتى تقلَّص ظلها، بلاء عظيماً.



وسبحان من يقرُن قضاءه باللفظ، فإنه في الوقت الذي بُثَّ فيه هذا الترام في شوارع البلد وأزقته يدك الرعوس، ويحصد النفوس، وأطلقت آلاف الأوتوموبيلات، واللوريات، والموتوسيكلات، تقدُّ المتون، وتبعج البطون، وتابى «الشفقة» على ساقها أن يرسلوها على خلق الله قبل أن يحشوا معاطسهم بالكوكابين، والمهاروين، وغيرهما من البلاء المبين، حتى «يغبوا» عن مشاهدة ماتنيسف سياراتهم من الهام، وماتقري من الأجسام، وما تُرسل على الناس من الموت الزؤام! ولا تنس، جعل الله لك في كل خطوة ألف سلامة، تلك السيارات العاصفة، مالهأ من دون الله كاشفة، وتيك التي يتخذها أبناء الذوات ومن انحدرت اليهم النعمة. وهي تنطلق انطلاق السهام، في أجساد الأنام، كأن مهمتها في هذا البلد صنع أرامل وتخريج أيتام — سبحان الذي حين يتلى البلد بكل هذا يُرسل فيه الدكتور على ابراهيم، يجمع

من أعضاء الناس ما تفرق، ويرم من أحشائهم ما تخرق، ويضم من أشلائهم ما تمزق، حتى أوشك أن يقطع على عزرييل، رزقه من فنه الوبيل ! .

ونقد رأيت صديقالى من أهل الأخطار لا يرى الدكتور على إبراهيم
يُجوز فى طريق أو يغشى ناديا الا صف قدميه ووقف (زنهار) ورفع يده
بالسلام العسكرى ، فقلت له فى هذا ، فقال : « علشان ياخذ بالله منى يوم
أحمل اليه » فقلت له : يالك من رجل مبالغ ، فكان جوابه : على كيفك لك
ترمواى يترد عليه !



وجل من تعالى على النقص وتزده عن العيب ، فإن جراح الشرق كله
لا يملك مستشفى يليق بجلالة محله ولا بالآلاف « المجاريح » الذين يطالبون
مستشفاه من كل مكان : فقد سلطت عليه شهوة اقتناء « السجاجيد » وألوان
الطرف وإحراز ما أبدعت يد كل فنان ، وما افتن فيه كل صنع حسان ، ومن
كل ما رثت فيه العصور ونصل عليه لون الزمان ، من دمي وتماثيل ،
وتصاوير وتهاويل ، ونمارق ووسائد ، ومعاضد وقلائد ، وخشب منجورة ،
وأحجار محفورة ، ومزاليح أبواب ، وسروج دواب ، وشرفات دور ،
و « شواهد » قبور ، وضباب مصبرة ، وجرار مكسرة الخ : ولو نقض عنه
بعض ما يحوزه من ذلك لابتنى مستشفى يليق حقا بشيخ الجراحين ! على أننا
ترك الكلمة فى هذا للمجاسن الحسبي

وبعدُ فإن حقًا على أهل مصر جميعا، ومياسيرهم بنوع خاص، أن يسجدوا
 لله تعالى سجدة الشكر كما أطلَّت شمس الصباح عليهم اغتباطا بأن على ابراهيم
 غير ولوع بجمع المال، فلو كانت لغيره تلك الأصابع التي «تسرق الكحل من
 العين» لآثر أن يكون «نشالا». اذًا والله لسل الآلاف، ولأحرز أكثر مما
 تُجدي «الجراحة» أضعاف الأضعاف، ولما أبقى في جيب على كيس،
 ولا هنيئ الناس بكريم ولا نفيس؛ ولكن قدرفكان، وسبحان من «يعطى
 الحلقة للى بلا ودان» . ! ! ! .



”مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ ،
وَمَنْ أَرَادَهُمَا مَعًا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ“

أحمد لطفي السيد بك

لا أدري، أعلمه أوفر من عقله، أم عقله أوفر من علمه؟ إلا أنه أوفى بهما كليهما على الغاية. وهو عالم واسع العلم، وعاقِل واثق العقل، وذكي متسّر الذكاء. له عِنان حديدتان كأما تَمَدُّهما أشعة (إكس) فلا يكاد يقوم بينهما وبين ما تريدان حجاب، وإنه ليحاول أن يَسْتُرَ عنك إدراك هذا منه بمنظاره الأسود، كما حاولت الطبيعة أن تَكْتُمَ على الناس بما ضيقت في مَحْجَرِيهما تضيقا !

وأحمد لطفي السيد قد بان خطوره من يوم نجم، فكان طالبا في مدرسة الحقوق لا تَعْنِيهِ مُدَارسة القانون المدني، ولا يَحْتَفِلُ لقانون تحقيق الجنايات، ولا يهمه أين تقع (نمرته) من سلك التلاميذ في امتحان غاية العام قَدَرًا ما تَعْنِيهِ مُدَارسة المنطق والفلسفة وعلوم الاجتماع؛ على أنه كان مُجَلِّيًا في الأولى كما كان مُجَلِّيًا في الثانية. وبهذا نخرج لطفي على غير ما يخرج سائر التلاميذ، نخرج وله عِرْق في الحكمة والمنطق وسائر علوم النظر لا يَتَّبِقُ في العادة لإخوانه «الحقوقيين» .

دَرَجَ مَدْرَجُ نُظَرائِهِ في الحياة العملية حتى كان نائبا أو رئيس نيابة، على أن خَطْبَهُ في ذلك لم يكن جليلا، فقد انصرف همه، إلا أقله، إلى تحصيل العلم والأدب وأخذ العقل بالتدبير وصدق النظر، وأخذ اللسان والقلم بفصاحة

القول وقوة البيان بالحديث والخطابة، وبالترجمة والتأليف، وتارةً بالكتابة في الصحف في ألوان الموضوعات .

ثم كان حزبُ الأُمة وكانت «الجريدة» وتهاوت الأنظار على من يقوم بها كفاءاً لِمُهَمَّا الجُسام ، فوقعَت كلها عند لطفي السيد ، وتولَّى الجريدة فكان كاتباً لا يُبَارَى كما كان صحفياً لا يضارَع . وبانت له موهبة جديدة أحوج ما يكون إليها امرؤ يتولَّى تلك «الجريدة» في ذلك العصر، وهي شِدَّة الطبع والصبر على الخصومة وطول الكفاح . وناهيك بمن يَصُمِد للقتال إذ شيخُ الكُتَّاب على يوسف يتولاه عن يمينه، وإذ قى الوطنية مصطفى كامل ينقُص عليه أحياناً من شماله، وإذ أُمَامَه، ولا أَسْمَى، من لا يُشَقُّ في الكيد غُبَارَه، ولا تُصْطَلَى في الجُلَى نَارَه . ومهما زعموا أن وراء حزب الأُمة كانت قوَّة تعضده وتشدُّ مَتْنَه ، فما كان من شأن هذه القوَّة أن تُقَرَّب إلى هوى الناس جريدةً ، وكانت في الوقت نفسه تتحدث على أمانى البلاد وتطلب أن يسودَّها حكم الدستور، وإن طلبته دستورا «متواضعاً» كما كان يهتف أستاذنا الجليل — ومع هذا فقد تهيأ لمقدرة لطفي أن تستدرج الخاصة وأشباه الخاصة في عامة البلاد، وأضحت دارُ «الجريدة» متدى أهل العلم والأدب والرأى الصحيح ينتجمونها من كل مكان .

لم يكن لطفي في سِنِيهِ تيك صحفياً فحسب، بل كان أستاذاً يشرع في العلم والفلسفة وفنون الاجتماع، وكان له طلاب من الشباب أهل المواهب والذكاء، فمراقك اليوم من علم فلان، وما أعجبك من عقل فلان، وماراعك

من أدب فلان ، فأولئك ، فى الحق ، أكثرهم من صنعة لطفى السيد فى تلك الأيام .

وهو رجل له ، أو كانت له ، شخصية قوية : له نظرُهُ ، وله تدليله ، وله أسلوبه الكتابي ، بل وله إيماءُته وحديثه . وإن كثيرا ممن كانوا يطوفون به ليقلّدونه فى كل ذلك ، فمن أعيا عاينه تفهّم علمه وأدبه راح يقلّده فى شكله ودلّه ، ويحاكيه فى لهجته ومخرّج حروفه .

ومن ظريف ما يروى فى هذا الباب أن فتي من أبناء الحكّام أصحاب لطفى كان يُعجّب به هو الآخر طوعا لإعجاب الناس ، فكان جُهدُ حيلته فى بلوغ بعض شأو لطفى أن ينسِلَ إلى حلاقه فيسأله أن يُسوّى له رأسه كما يفعل بشعر الأستاذ سواء بسواء ، ثم يغدو على الناس بعد ذلك يقبض صوته ويرسله ، ويلوّه ويعدّله ، ويُفكّكه ويُأجّجه ، ويرققه ويفجّجه ، ويتشّى عطفه من زهو واستكبار ، ويهزّ كنفه من استنكاف واستنكار ، ثم يعود إلى نفسه فيراها قد استوت « لطفى السيد » فى غير جهد ولا عناء ! ... وما دام العلم والفلسفة كلها إنما تُتصل « بالحلاقة » فلماذا يقف صاحبنا عند هذا الحد ؟ وإني لأراه يُغذّي^(١) السيرَ فأسأله إلى أين يا فلان فيقول إلى الحلاق فقد اعتزمت اليوم أن أحلق « مونتيكيه » أو « أوجست كونت » أو « جان چاك روسو » أو غير أولئك من ضخام الرجال . ومثل هذا عندنا ، لو لاحظت الناس ، كثير ! .

(١) يغذّي السر : يسرع .

ونعود الى الأستاذ لطفى فقد ظل في كِفاحه وجِلاده، إذ خاصةُ الناس كلَّ يوم عليه في إقبال، حتى ضعفت أفاعيلُ السياسة حزبه فكان آخر من ألقى السلاح . ثم عاد الى النيابة فلم يتصل شأنه فيها بجلالة شأنه حتى كانت سنة ١٩١٩ فضحى بالمنصب في سبيل الثورة، وانتظم في الوفد المصرى عضوا فكان فيه عنصرا قويا ، وكان أداته في أكثر ما يُخرج للناس من بيان مكتوب . وانطلق مع الوفد الى أوروبا وليث معه عاملا نافذا، ما شاء الله أن يلبث ، ثم عاد مع من عادوا أول الأمر . وتظهر بوادر الشقاق فيبدوله أن يتحفّظ فيتحفّظ، ثم يستفحل الخطب فيهديه عقله الى أن يتسلل الى داره في رفق فيفعل ، فيبقى جالس بيته سلما كله حتى يُطالب لما هو أليق به وأكرم، فيتولى دار الكتب المصرية ينظر في شأنها بعض اليوم، وينظر في شأن العلم سائرَه، وكان من حظ «نصف العزلة» هذه، أو من حظ للعلم منها، أن أتم ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس (الى نيقوماخوس)؛ وما كان الإبداعُ في ترجمة هذا الكتاب بأبلغ من الإبداع في الإقدام على إخراجِه في مثل تلك الأيام !!!

ولقد فاتنى أن أقول لك إن هذا الرجل الذى ضحى بالمنصب في سبيل الثورة، قد عاد فضحى بالثورة في سبيل المنصب، فأصبح كما يقول أصحاب الميسر (كِتْ) لاله ولا عليه. والى هنا ينتهى عندى تاريخ ذلك الرجل العظيم ! وعساك تتحدانى بأنه أصبح الأستاذ الأعظم الرسمى في كل البلاد من يوم أصبح «مدير الجامعة» فأجيبك بأنى « ما عنديش خبر » بشئ من هذا كله ؛

وكيف تريدنى على أن أصدق أن الأستاذ لطفى السيد كله أصبح مدير الجامعة المصرية فى حين لم أسمع بأنه أفاض على الطلاب درسا أو ألقى محاضرة فى العلم واحدة؟ فان كنت تريد «بمدير الجامعة» ذلك الموظف الذى ينكسر همه على طلب كسب الحجاب والسعاة، و «تسوية» أجور البوابين والجناينة و «العرض» لوزارة المعارف عمن يلزم ترقية من جماعة الكتاب، فليس ذلك بالرجل الذى يعنينا فى مثل هذا المقال ! .

الحق أن لطفى أستاذى، وإنه ليسوءنى أن يختم حياته فى هذه «الجامعة» من حيث يجب أن تبتدى الحياة القوية لعظماء الرجال ! .

والواقع أن الداء «الأجنبى» قد تفشى تلك الجامعة فى حين لم نزل ذلك «الحكيم» قولا ولا عملا! ولو كان هذا المقام مقام تفصيل فى مثل هذا الباب لباديت أستاذى العظيم بكثير ! .



ولطفى بك يجمع الى عذوبة الروح عذوبة الحديث، وهو أديب تام يحفظ صدرا عظيما من متخير شعر العرب ومأثور أقوالهم، الى فقه فى متن اللغة ورعاية لدقائقها، وبخاصة اذا كتب أو حاضر أو خطب . وله فى أبواب البيان والترسل أسلوب خاص به حاول كثير من الكتاب أن يتكلفوه فانقطعوا دونه . وهو شديد الحرص على أن يريك أنه لا يعبا بتجويد العبارة ولا يتحرى اللفظ الرشيق إذ هو فى الواقع يجهد فى هذا، رغم عنايته بالمعاني والتكثير من إيراد مصطلح العلماء، ويتمم له الى ما دون التعسف .

وهذه الصفة فى لطفى السيد إنما تتصل بأخلاقه جميلة ، فهو رجل قد أخذ نفسه من كل أقطارها بألوان التكلف : يتكلف فى مراح الشباب ثقل الشيوخ ، ويتكلف فى مجلس اللهو هيئة الجِد ، ويتكلف عدم الاكتراث لأعظم ما يكرهه من الأمر ، بل إنه ليتكلف الكلام «بالخاف» إذ هو قد نجح فى بيئة لم يعد يرتبطها بأهل الريف سبب !

نعم لقد أخذ نفسه بهذا التكلف كله حتى أصبح له طبعاً وسجية . وأكبر ظنى أنه لو شاء يوماً أن يرسل نفسه على سجيته التكلف فى هذا كثيراً .

ولطفى بك أول من رفع راية «الديموقراطية» فى مصر فى هذا العهد الحديث ، وهو الذى نفخها فى روح الشباب وأجرى كلمتها على ألسنتهم ، وعُصارة الحزب الديموقراطى من تلاميذ لطفى ولا جدال ، وإنك لتراه مع هذا أرسطقراطى الفكر ، شديد الأثرة للرأى ! ولقد تخالفه الى غير وجهه فإبى إلا أن يغلبك ، ولقد يغلبك بمحض الجدل يتحرف فيه تحرفاً ، وهو رجل يملك حجته ويعرف كيف يصل بها عليك فى الحوار ، فإذا كنت أنت الآخر جديلاً متمكناً من حجتك وأحس منك السطوة برأيه رأيت فى وجهه تغيراً وآنت من نفسه عنك انقباضاً .

ولا أدرى أكان هذا من أثر تمكُّنه من نفسه وشدة إيمانه بحقه وكرهته أن تنزل من الرأى على باطل ؟ أم أن لاسألة وجهها آخر ؟ !



وإذا كنت لم أقع من لطفى على أجل فضائله ، فلعلى قد تهديت الى أجل مكارهه ان كان ما هتفتُ به يُعدّ فى المكاره ، وإنى لأرجو بهذا أن أصيب

رضاه كاملاً . ولقد دخل رجل من الناس على بعض الحكماء فأقبل عليه
يمدحه ويعتد محامده ، فقال له الحكيم : يا هذا أولى لك ؟ وان ! ببارك لما
ترى في من فضل لدليل على أنك لا تراني كفاً له ، فلو قد دلتني على هنا !
فتلك التي ليست بكفاء لي .

أسأل الله تعالى أن يعيننا على خدمة أساتيدنا وأحبابنا فنحن في حقوقهم
من هذه الناحية جد مقصرين !!!



لا أبالي إزاء نفع الأقارب والأصهار، أجفّ النيلُ أم ذوّت الثّمار !

اسماعيل سرى باشا

طويل القامة ، كبير الهامة ، عريض « الوجهة » نأتى الجبهة ، ضخم الأنف ، مرسل اللحية والحاجبين ، لذه عينا متحيرتان ، دائماً الحركة والدوران ، تقضت الطبيعة على هيكله كل جلال الشيوخ ويأبى هو إلا أن ينفذ على لسانه كل خفة الشباب . فاذا أنت رأيته كدت تعلق نفسك من روعة وإكبار : جلالة علم فى جلالة منصب فى جلالة مشيب . حتى اذا سمعته يُخوض فى بعض من لا يحبهم ويستريح اليهم لم تكذبك نفسك من الاستنكار أو ما هو أشد من الاستنكار !

وسرى باشا مهندس بارع ، كفء ، فى بابيه ، لكل عظمة به وهو شيخ المهندسين المصريين وإمامهم غير مدافع . وإن له فوق هذا شهرة عالمية ، فقد دفعه خطره وسعة علمه وصحة تقديره وقوة ماضيه الى أن يُسلمك بحق فى زمرة كبار المهندسين فى العالم .

وسرى باشا وُلِدَ فى عائلة رقيقة الحال فى قرية (ريدة) من أعمال مركز المنيا ، ونزح والده الى قصبة ذلك الإقليم لا يتكئ إلا على بدنه فيما يكون أرد على شمله ، فاستُخدم فى ديوان المديرية فى عمل لا يتسق لذكائه ولا لقوة استعدادده ، فتطلعت نفسه الى ما هو أولى به وأجدى ، ولم يُلْهِهِ عمله المضنى عن أن يتعلم القراءة والكتابة ، وما زال دائباً حتى أحسنهما وحتى عُيِّن كاتباً فى مديرية الفيوم ، ولأمر ما نُفِيَّ عمدة المنيا الى السودان فعين بدله

محفوظ افندى ، وأدخل ولده «اسماعيل» فى مدرسة المنيا مع حسن فتحى الذى صار بعد مفتشا للرى ؛ وظهرت مخايل النجابة على ولده هذا اسماعيل ، وبرع أقرانه ؛ وما برح له السبق عليهم حتى اصطفى فيمن اصطفتهم الحكومة «للارسالية» ؛ فمضى الى فرنسا واتصل بكلية «سنترال» حيث درس الهندسة وخرج منها بأعلى شهاداتها .

وعاد اسماعيل سرى ، فاتصل بخدمة الحكومة مهندسا صغيرا ؛ وتدرج بكفائته فى مناصب وزارة الأشغال حتى أصبح مفتشا «لعموم المشروعات» ؛ ومن ذلك اليوم رنت الآفاق باسم اسماعيل بك سرى فى المهندسين العظام . وفى الحق أن ما متع به كبد الصعيد (مديرية المنيا وطرفا أسيوط وبني سويف) من رى صيفى بإقبال زرع فسحة ثروة ، إنما كان من صنعة اسماعيل سرى ، مهما عدوا على تلك «المشروعات» من العيوب .

وفى الحق أيضا أنه — بعد أن طويت من صحيفة وزارة الأشغال أسماء المهندسين المصريين حين أودى الردى بعلى باشا مبارك واسماعيل باشا محمد وبهجت باشا وأشباههم من النواظير الأولى — كان اسماعيل سرى أول من بعث على الألسن أسماء المصريين مع ديوى ووليم جارستن وأكفائهما من المهندسين الانجليز .



ولو قد ترك اسماعيل باشا سرى فى عمله الفنى البحت لأجدى بعلمه على البلاد كثيرا ؛ ولكن الرزية كلها فى المناصب ، وقاتل الله المناصب ، فقد قُلت الوزارة ، والوزارة سياسة أكثر مما هى فن ، والرجل لا يحدق السياسة ولا يفهم

منها إلا القدر الذى يعصم عليه منصبه ويستديم له أبهة الوزارة وما إليها من الراتب، والجذوى على الأولاد والأقارب .

وببالغ صاحبنا فى الإخلاص لهذا المعنى ويُقْرِط فى الحرص عليه الى حد أن يُسَخَّر، اذا دعت الضرورة، كل ما أوتى من علم وفن لخدمة السياسة ولو أودى فى هذا السبيل، بكل وادى النيل؛ حتى ظفر فى عهد اللورد كتشنر، إن عدَّ هذا من الظفر، بتأمراف تأييد من حكومة انجلترا يضمن له السلامة «والنغمة» فى المنصب والجاه على طول الزمان !

وانى لأعرف طائفة من المصريين كانوا، ولعهم مازالوا، يراءون أهل السلطة من الانجليز ويتجملون لهم ويظاهرونهم بالموثة والعطف استخراجا للمنافع، اذ قلوبهم لا تنطوى من ذاك على كثير . أما اسماعيل سرى باشا فهو لا يمارى القوم فى هذا ولا يرائيهم؛ فانه مخلص الحب لهم صادق الصبابة فيهم، يواليهم بالهوى فى سره، كما يتشيع لهم فى جهره، لا يتحرج فى ذلك ولا يتأثم؛ والإخلاص، لو علمت، فنون ! ...



ومن أظهر صفات هذا الرجل أنه وَصُولُ لِرَحِمِهِ، دَائِبٌ جَاهِدٌ، فى غير ملل ولا سأم، على كل ما يعود بالخير على ولده وأصهاره وسائر عشيرته؛ ولو مُدَّ له فى الحكم وبُسِطَ له فى السلطان «لَرَفَتْ» جميع موظفى الحكومة، وجمع الى كل فتى من أهله ٥٧ وظيفة فى آن واحد، حتى يستطیع أن يقصر وظائف الدولة عليهم فلا يتولى واحدة منها خارج عنهم . وإن له فى دسهم

فى الوظائف والقفز بهم الى عليا المناصب لأحاديث تُجَمَّع وتُنَشَّر، وأفاكية تُروى وتُؤَثَّر، وحسبك أن تردّد النظر فى دواوين الحكومة وسائر مصالحها لتتفع فى كل واد على أثر من ثعلبية . ولقد بدا يوما لبعض الحسدة أن يجمع ما يجيبه «آل سرى» من أموال الدولة، ونخرج له منها ما يقوم بنفقات مصلحة كاملة (وعين الحسود، فيها عود) حصنت آل سرى برب الفلق، من شرّ ما خلق، ومن شرّ غاسق إذا وقب، ومن شرّ النفّاثات فى العُقد، ومن شرّ حاسد إذا حسد .

ومن طريف ما يروى له، وكلّ ما يروى له فى هذا الباب طريف، أن وزيرا كان من زملائه له قريب فى وزارة الأشغال فسأله أن يرقّيه الى بعض مناصبها الخالية لأنه «قد استحق الترقية»، فتناقل عنه سرى باشا وتعدّر عليه، وتوسّط فى الأمر بعض اخوانهما من الوزراء فقال لهم معالى «وزير الأشغال» ولماذا أرقّى له قريبه وعنده قريبي «فلان» لا يرقّيه ! فقبل له ولكنه لم يحنّ بعد أو أن ترقّيه، قال : اذن تتربّص بقريبه حتى يحمىء الدور على قريبي . وتعلم، أيدك الله، أن صاحب الحاجة أرعن، فبادر الوزير الآخر بترقية قريب سرى باشا بالاستثناء فى سبيل ترقية قريبه هو بحكم الدور !!!

وجاءه مرة أحد زملائه الوزراء من هذا الباب فسأله أن يرقّى أحد صنائعه درجة على أن يرقّى هو أحد أقرباء الباشا فى ديوانه درجة، فدار بذهنه «الرياضى» الكبير فى «الحسبة» فرآها «تفرق» ٢٤٠ قرشا فى كل شهر فتوقّف أو يؤفّاها «على داير القرش»، وتعاصى الأمر، وتعدّر الحل،

وأخيرا وبعد طول محادثات ومفاوضات توسط أحد الوزراء أيضا فى الأمر على أن يزيد قريبا لسرى باشا فى وزارته هو مائتى قرش ، على أن هذا كل ما تبلغه طاقته ويدخل فى جهده ، وذلك كله تفاديا من وقوع أزمة وزارية (Crise Ministérielle) ، وبعد لأي رضى سرى باشا بهذا الحل محتسبا عند الله . قرشا فى كل شهر : كانت — او أن فى البلاد عدلا وانصافا — تعودُ على بعض الولد أو الأصهار أو الأقرباء ، بشيء ، ولو قليل ، من اليسر والسعة والرخاء !!! وكانت تضحيةً من نفس سرى باشا هائلة استحق بها أن يقام له تمثال ، يخلد به « المثل الأعلى » للتضحية والإيثار على تطاول الأيام والليال !!!



مَنْ أَطَاقَ التَّيَّاسَ شَيْءٌ غَلَابَا * وَاعْتَصَبَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالَا

عبد الحميد سعيد بك

عَبَقْرِيَّ حَقًّا كَمَا تَعْنِي اللُّغَةُ بِهَذَا اللَّفْظُ ، فَهُوَ طَوِيلٌ بَائِنُ الطُّوْلِ ، عَرِيضٌ
وَافِرُ الْعَرْضِ ، وَافِي الْعُنُقِ ، بِعِيدٌ مَا بَيْنَ الْمُنْكَبِينَ ، شَدِيدُ الْمُنَّةِ ، مَفْتُولُ الْعَضَلِ ،
إِذَا تَمَثَّلَ إِلَيْكَ حَسْبَتُهُ بَقِيَّةً مِنْ هِيَاءِ كُلِّ سَلْيَانٍ ! ضَحْمُ الرَّأْسِ وَالْوَجْهِ ، تَدُورُ
مِنْ حَوْلِهِ لَحْيَةٌ كَأَنَّهَا إِحْدَى الْآجَامِ ، بَسَقَتْ حَوْلَ بَعْضِ الْآكَامِ ! لَمْ يَقُمْ عَلَيْهَا
مِنْجَلُ الْبَسْتَانِيِّ بِالتَّقَايِمِ وَالنَّشْذِيبِ ، وَلَمْ يَتَعَهَّدْهَا مَقْصُصُهُ بِالتَّسْوِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ ،
وَلَوْ قَدْ رَفَعْتَ النَّظَرَ إِلَى أَعْلَى وَجْهِهِ ثُمَّ تَرَاخَيْتَ بِهِ إِلَى أَسْفَلِ ذَقْنِهِ ، لَرَأَيْتَ ثُمَّ
مُثَلَّثًا مُتَسَاوِي السَّاقَيْنِ ! أَمَّا رُوحُهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، وَأَمَّا عِزُّهُ الصَّائِلُ
فِي نَفْسِهِ ، فَأَشْبَهَ بِسَكَّانِ هِيَاءِ كُلِّ سَلْيَانٍ ، مِنْهُمَا بَغْرَائِزُ بَنِي الْإِنْسَانِ ، فَهُوَ مَارِدُ
النَّفْسِ وَالْقُوَّةِ ، مَارِدُ الْعِزِّ وَالْقُوَّةِ !

نَشَأَ مِنْشَأَ بَنِي الْأَعْيَانِ يُدَلِّيهِمْ أَهْلُوهُمْ إِلَى الْمَدَارِسِ لِيُحَرِّزُوا الشَّهَادَاتِ
ثُمَّ يُخْرِجُوا إِلَى خِدْمَةِ الْحُكُومَةِ ، وَتِلْكَ الْغَايَةُ عِنْدَ جَمْعِهِ أَعْيَانُنَا تُشَدُّ إِلَيْهَا الرِّجَالُ ،
وَلَتُنْهَى عَنْهَا مُرْسَلَاتُ الْأَمَالِ ، عَلَى أَنَّ التَّلْمِيذَ عَبْدُ الْحَمِيدِ سَعِيدٌ لَمْ تَكْدُ
تُتَفَتَّحْ نَفْسُهُ لِفَهْمِ مَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى كَانَ لَهُ فِي أَسْبَابِ الْحَيَاةِ غَيْرُ ذَلِكَ الرَّأْيِ ،
لَمْ يَرِ الزَّادَ كُلَّهُ فِي أَنْ يَرَسِمَ خَرِيطَةَ إِيطَالِيَا ، وَأَنْ يَحْيِدَ الْجَزَرَ التَّكْمِييَّ ، وَأَنْ
يَسْتَظْهَرَ مِنْ « الْكِتَابِ الرَّابِعِ » بَابِي الْأَشْتَغَالِ وَالتَّنَازُعِ لِيُخْرِجَ ، فِي النِّهَايَةِ ،
« فِي الْعَشْرَةِ الْأُولَى » ، بَلْ أَدْرَكَ مِنْ شَبَابِ سَنَةِ أَنْ لَهُ وَطَنًا ، وَأَنْ هَذَا الْوَطَنُ
يُحْكَمُ فِي شَأْنِهِ غَيْرُ أَهْلِهِ ، وَأَنْ وَاجِبُهُ ، مَا دَامَتْ بِلَادُهُ مُحْتَلَّةً مُضَيِّعَةً الْحَقَّ ،

أن يكون جندياً لمصر قبل أن يكون طالب علم في مصر . وعلى ذلك اتصل هذا الفتى بدعاة الوطنية ، وصرف أعظم قسط من الوقت المقسوم لمراجعة الدرس الى حديث الوطن . واذا كان عبد الحميد سعيد قد أحرز الشهادة الثانوية وأحرز بعدها إجازة الحقوق (ليسانس) فقد اختلس الدرس والمذاكرة لهما من وقت «الوطنية» اختلاسا !

ويهاجر صاحبنا الى باريس يدعو لمصر ، ويرفع للعالم حجتها ، ويجاهد في سبيلها بما يملك من المال واللسان والقلم ، ويتخذ هنالك بيتاً يصبح مثابة لدعاة مصر خاصة ودعاة أمم الشرق المظلومة عاقمة ، يجتمعون فيه الفينة بعد الفينة ليأتمروا في شأنهم ويستفصحوا للدعوة مناهجهم .

وتنهّد دولُ البلقان كافة لحرب الدولة العلية ، وتجرّد عليها كل مهلكة من آلات القتال ، كما تحرك عليها كل ماتعل به صدور القوم من التعصب الديني ، فيركب عبد الحميد الى البلقان جناح النعامة ، واذا هو جندي في لباس العسكر وسلاحهم ، واذا هو يابى إلا أن يقاتل دائماً في الصف الأول ، حتى يقع ذات ليلة في إحدى الوقائع جريحاً يترسب في دمه إذ قد انحسر عنه قومه وأقبلت خيل البلغار ، فما زال يتخلّج من دونها ويتحرف عنها يتستر بالظلام ويتوارى في جذوع الدّوح لا يبالي ما يترّف من دمه المهرق حتى يبلغ على هذه الحال خطوط الترك ، ولولا هذا العون من الله ما وقعت عينٌ على وكيل مجلس نواب ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ !!

(١) نهّد لعدوه واليه (من بابى منع ونصر) برزاليه وصعد له .

(٢) يتضرّج في دمه كأنه يرسب فيه لكثرة .

وتدور بعد أولئك الأيام رحي الحرب العظمى فينخرط عبد الحميد في جندها يتحول من ميدان الى ميدان، كلما أهابت به دواعي الجلال والطعان، حتى اذا تهادنت الأمم المحتربة، وظهر الحلف الانجليزى، وتكسرت دول الحلف الألمانى، وانطلقت يد إنجلترا في ملك الله تفعل ما تشاء، هام صاحبنا في فضاء الأرض يتلأم بالكسرة، ويتروى بالصُّبابة، وهو سليل بيت نشأ في الثَّرَف وتقلب في النعمة، لا يعنيه من أمره إلا أن يدعو حيث كان لمصر، ويهتف، أُنّى وقع به القضاء، باستقلال مصر.

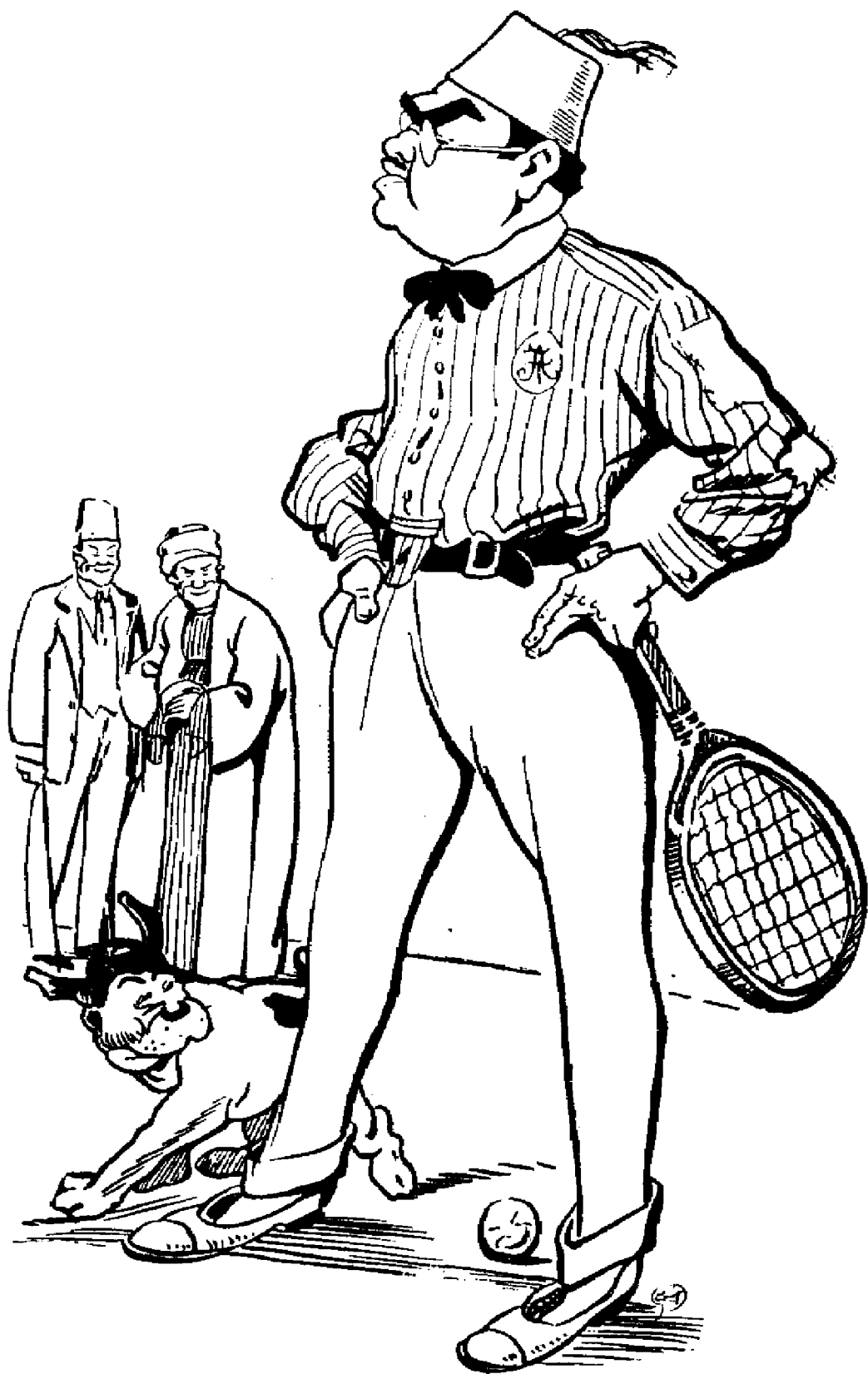
وما أنس لا أنس منظره يوم ٢١ نوفمبر وقد جردت دولة زيور باشا كل ما عندها من جيوش وخيول مَهْرِيَّة، ورماح سَمْهَرِيَّة، وقنّى خَطِيَّة، وكل عازفة مُهمِّمة، وكل قاصفة مُدْمِمة، لتتحول بين نواب الأمة وبين اجتماعهم، ويخرج عبد الحميد سعيد متسلحا بعصاه التى ترن ٧٣ كيلو، وقد تهيأ للحرب والطعان، في سبيل اقتحام الصفوف الى البرلمان، فكان منظره يومئذ "كالتانك" سواء بسواء!

وهو اليوم عضو في مجلس النواب، اذا تحيَّفت السُّن من بعض فتوته، وطأمن حكم الأيام شيئا من جمّاحه، فترك حديث مُصَوِّع وهرر، فما زالت له قوّة على الوثب الى بلاد الأحباش، للبحث عن نهر الجاش، دُعك من أمر سِتَار، ومن خزان مكوار!

(١) كان عبد الحميد سعيد بك قدّم استجوابا في مجلس النواب لوزير الخارجية يتعلق بانفاق بعض الدول على نهر (الجاش).



وبعد، فقاتل الله العلم، وقابل الله الاختراع الحديث، فلولا ما أخرجنا للناس
من بنادق ومدافع، وآلات ساحقة، وغازات خانقة، وطائرات تحلق في السماء،
تمطر الجيوش ألوانَ البلاء، ومدفعات وطَرَّادات، ونسافات وغواصات،
ترمي بكل فاتك وبيل، من قذيفة وطربيل، لكان لعبد الحميد سعيد اليوم
شأنٌ لا يقل عن شأن الزناتى خليفة، وأبى زيد الهلالي سلامة، والبردويل
ابن راشد، وأصف شراب الدماء، وأكفائهم من أبطال الحرب والطعان،
الذين سارت بشهرتهم الركبان، وسجل «التاريخ» بطولتهم على وجه الزمان! ...
ولكن من سوء حظ عبد الحميد بك سعيد أنه يعيش في القرن العشرين؛
ولا أدري أكان بهذا قد ظلم التاريخ، أم قد ظلمه التاريخ؟ ! ! ...



قبل ما يلعب !

فكرى اباظة !

متكور الوجه ، أَخِيفَ العينين في ضيق محاجر ، مقرون الحاجبين ، كأنما شقَّ عن فمه بعد أن استوى خلقه ؛ متوافر اللحم في غير بُدونة بَيِّنَةٍ ، ولو قد أطلق ، مع قِصره ، للشحم العِنان لَمَّت عليه نعمة الله كُلُّها ! ولو رأيتَه في إخوته لحسبته بعض تلك النباتات التي تخرج وحدها فلم يتعهدها مِنْجَلُ البستاني بالتسوية والتشذيب !

وفكرى ، على هذا ! على هذا كله ! ! . يكاد من خفة الروح يطير ؛ ولعل مما يساعده على هذا (الطيران) شكله (البالوني) الخفيف ! حلوا النفس ، حلوا الحديث ، حاضر البديهة ، رائع (النكتة) ، لو دُيِّ لك أن تجلس اليه عشرين سنة ما أحسست ضَجْرًا ولا سَأَمًا ؛ يَسْرُكُ حتى في غضبه وحتى في خِصامه ! وإن هذه الطَّرَفُ البديعة التي يطالع الجمهور بها في الصحف لِقِطْعٌ من نفسه الفَنَّانة اللعوب يُرسلها على القرطاس إرسالا في غير كلفة ولا مطاولة ولا عناء ؛ ولعلها بهذا وحده تُشِيع في الأنفس كل ما تجد لها من أريحية ولذة وطرب .

وهو ذكي متعلم تام الاستعداد ؛ على أنه صرف كثيرا من هذا الى تمرين تلك الموهبة العظيمة فيه حتى أدركتْ كل هذا الإدراك ، وحتى استأثر بهذا الفن البديع من البيان إن لم يكن قد خَاقَه في بلاد العربية خلقا !

وأخشى ألا يُعجب هذا الكلامُ الأساتذة : علام سلامة، ومصطفى صادق الرافعي، ومهدى خليل، وصادق عنبر، وأضراهم من أصحاب اللغة . ولا أقول لهم إن لغتكم لا تتسع لهذا الضرب من (النكتة) وأسباب التظرف، ولكني أقول لهم : إذا أبيتم ألا يتندر الناس إلا بالفصيح الصحيح فعليكم أولاً بتحفيظ الأمة كلها المعلقات السبع، والملححات السبع، والمذهبات السبع، والمستقيات السبع الخ، الى استظهار الكامل للبرّد، والألم الى اللقالي، وصحاح الجوهري، ومخصّص ابن سيده، والأساس للزنجشري الخ ! . . . وأنا زعيم لكم بأن الناس لن يعودوا يسمعون في أعراس (أولاد البلد) في خال الغناء في (قافية أسماء الشوارع) مثلاً : اللي على جنتك ! . . . إشمعي؟ الضرب لحر ! . . . بل سيسمعون بدلها إن شاء الله : هذا البادي على جثمانك ! . . . ما بالله؟ . . . من أثر المشق بالسيّاط ! . . .

وعلى ذلك فقد حق على هؤلاء وأمثالهم أن يُطلقوا للناس حرية القول والكتابة في طرفهم وسائر حاجاتهم حتى يتبها للأمة أن تستحيل كلها (شناقطة) و(حاميز فتوح الله)، باذن الله ! ! !

نعم لقد (تخصّص) الأستاذ فكري أباطه في هذا النوع من البديع وبرع فيه أيما براعة، وهذا اسمه يرث به باعة الصحف صباح كل يوم وظهيرة ومساءه؛ ولو اجتمع لامرئ في بلاد الغرب هذا (الفن) الى هذه الشهرة لخرج في أصحاب الملايين؛ ولكننا مازلنا في طريق تقدير الفنون؛ على أننا كنا تنهزاً بها وبأهلها من عهد قريب !

واذا كان الفن أجدى عليه شيئا فقد أجدى عليه حقا عضوية مجلس النواب ، وذلك الحظ العظيم . وعلى ذكر البرلمان أهمس في أذن صديق الأستاذ فكرى بكلمة صادق مخلص : اعلم يا عزيزى ، وفقك الله ، أن وسائل النجاح فى شيء لا تصالح دائما وسائل للنجاح فى شيء آخر ، فإذا كان كل ما أعده الأستاذ فكرى للبرلمان هو نفس ما يعده للمصحف بلا زيادة ولا نقصان فأرجوه ألا يتكى كثيرا على عيشه الجديد ! وليعلم (أن له ناخبين يترد عليهم) . وليس معنى هذا أن فكرى قصر فى أداء واجبه النيابى ، أو أنه لم يكن له فى الأمر كفاية ، ولكنا إنما نطمح فى أن يكون للبلد منه فى البرلمان ، مثل ما لها منه فى عالم البيان .

على أنه مما يعزينا فى هذا الباب أنه ما برج يتهجى (البرلمانية) فى مجلس النواب ، وذلك باب يحتاج الى ممارسة وطول اختبار وتمرين ، أسأل الله أن يمد فى عمري وعمره حتى أراه فى (سنة رابعة) شيوخ ، خطيبا (برلمانيا) لبقا ، لكن لا كالشيخين المحترمين : عزيز ميرهم ولويس فانوس !



وقد نسيت أن أذكر لك أن فكرى أباطة يشتغل بالمحاماة أيضا ، وأنه محام من الطراز الجيد ، وأن له مكتبا فى مدينة الرقازيق يطلبه الناس ، وفيهم الجباه^(١) والسروات ، لتولى مهمهم والدفاع فى قضاياهم ، وأنه مجتد فى مهنته ، إن صح أن هذه مهنته ، لبق حسن التصرف مبسوط العلم بمدخل القانون . ومن هنا تعلم أن النبوغ فى فن لا يستهلك دائما سائر مواهب المرء الأخرى .

(١) المراد به وجهاء القوم .

ولا أدري أكون من الخير أن يوزع الأستاذ فكرى قواه على أمرين معا أو على ثلاثة، اذا حسبنا (البرلمان) شغلة ثلاثة؟ أم أن الخير كله فى أن يتجوزد لتربية تلك الموهبة الجليلة التى لم يشاركه فيها كثير، على حين يشاركه ويبرعه فى غيرها كثير؟ !!!

والأستاذ فكرى تخرج من عائلة كبيرة جدا كل أفرادها متعلم، وكلهم كسائر المتعلمين له فى السياسة رأى، ولكنى لا أخصى فى هذه الآلاف (ما شاء الله) حزبا وطنيا إلا فكرى. ولعل هذه من إحدى طُرفه كذلك !

على أن الأخلق به ألا يكون حزبا وطنيا من الطراز الجديد (Moderne) بل أن يكون وطنيا قديما محجوبيا لا يقنع بالسودان من منبعه الى مصبه ومعه الملحقات وماحققات الملحقات؛ فان فى الشرق القريب والبعيد بلادا ضافية الأطراف، واسعة الأكاف، أولى بمصر أن تتولاها وصاية وانتدابا مادام الانجليز على رأى الدكتور ثابت ولعل الفرنسيين أيضا (ما يقولوش حاجة) !!!

ذلك هو الأخلق بطريف الخيال، وليُسعد التنى إن لم تُسعد الحال .
مُنَى إن تكن حقا تكن أعذب المُنَى * وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا



وَنِعْمَةً صَارَتْ إِلَى كَانِزٍ * كَمْ حُجَّةٍ فِيهَا لِلزَّانِدِيقِ

أحمد مظلوم باشا

لعمري لو وقفت على عُنُق^(١) من الناس فحاجيتهم : ما أطول الحظوظ
في أطول الأعمار في أطول الأجسام؟ لأجابوك في نفس واحد : (مظلوم) !
وجه طويل ، على عنق طويل ، على جسم طويل . ولو رأيته يمشى ولم تكن
بعدُ عرفته لخيل لك أنه (زفةً بهلوان) وقف فيها رجلٌ على كَتِفِي رجل !
وفي الحق أنه لو قدر — لا سمح الله — وأزيل عنقه وما فوقه عن كتفيه
وما دونهما لتمثل منهما رجلان ! أشبه ما يكون كل منهما بخلق مظلوم !

أسطوانى الرأس ، ساهى العينين ، لو تأملت فيهما ما أعطتك إلا أن
وراءهما عدا كبيرا وزيفا في أرقام كثيرة ! مرسل الأنف ، رخب الفم ، ممدود
الذقن ، طويل اليدين والساقين . وإني لأخشى أن ينكشف الزمن ، ولو بعد
حين ، عن أن مظلوما هذا رجلان (اقتصاديان) اتصالا بحيلة لطيفة حتى
نحرجا للناس في صورة رجل واحد توسلا بهذا الى ألا يدفعنا عند السفر إلا
ثمن تذكرة واحدة ، وفي الفندق (الأوتيل) إلا أجر سرير واحد ، وفي المطعم إلا
عشاء رجل واحد ، وللخياط إلا ثمن بذلة واحدة . والواقع أن من شهدوا
مظلوما وهو يتعشى لا يشكّون في أن (جماعة) بأسرها تأكل ، فإن كان ، ولا بد ،
رجلا واحدا فهو انما يجتزئ ليومه الثاني !

(١) أى جماعة منهم .

وحدثتك بأنه طويل الخط، فقد خاض به حفظه أهل الكفايات وأصحاب العلم والاختبار في عصره، فتخطى به رقابهم الى الوزارة، ويظل وزيرا أو (ناظرا) للالية في عهد اللورد كرومر قرابة ثلاث عشرة سنة الى أن دالت الأيام لعهد السير غورست وانحرف وجه السياسة فهتت تلك الوزارة هذا.

ومظلوم أكفا الانس والجن لأن يظل (ناظرا) للالية ثلاث عشرة سنة لا يلى أمرا، ولا يُراجع في مسألة، ولا يُبدى رأيا، ولا يقرأ سطورا، ولا يكتب كلمة، ولا ينطق بحرف، حتى يقال له خذ متاعك لقد سقطت الوزارة، فلا يجد مايمحله معه إلا أنفه وإلا يديه ورجليه، أستغفر الله! وإلا الختم! فنحن اذا أردنا أن نترجم لمظلوم باشا في حياته الوزارية فانما نترجم عن الختم، والله يعلم ما تعب إلا الختم، ولا جهد إلا الختم، ولا استحق المعاش الكامل (١٥٠٠ جنيه) في الواقع إلا هذا الختم، فطالما دار في غفلة مولاه وبيم، وطالما نقش وبصم، وبدل من أحوال الدولة أحوالا، وبدد أعلقا وأموالا، وبسط للشركات الأجنبية في أرضها بسطا، وأخرج عنها جلائل أملاكها قسطا فقسطا. فاذا حملتم للبasha أيها المصريون على هذا حمدا أولوما فاصرفوه كله الى هذا الختم وحده فان البasha والله لكاسمه مظلوم!

ويدسى بعد هذا في (المعاش) وقد نيف على السبعين، وينقطع عن الناس خبره فلا يدرون أيكتبونه في جريدة الأحياء أم يُدرجونه في سجل الأموات، ولكن يابى له حظه الكبير إلا أن يبعثه بعد هذا بعثا كبيرا فيتولى

صهره ووارثه محمد سعيد باشا رئاسة الوزارة ويستقيل المغفور له الأمير حسين كامل (السلطان حسين) من رئاسة الجمعية التشريعية فيجىء لها سعيد بصهره ومورثه (بعد ٥٠٠ سنة) إن شاء الله مظلوم، فيزيد في الإرث بمقدار ثلاثة آلاف جنيه في العام مرتب رئاسة الجمعية، من فوقها خمسمائة بدل ولائم، وسعيد كان أكيس من أن يظن أن مظلوما (يقول عقله) ويصنع في عمره لأى كان وليمة واحدة ! وتدخل الحرب العامة وتقف الجمعية التشريعية، ويظل مظلوم (يحز) على الحكومة ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه إكل عام، حتى يأذن الله ويعلن حلها في آخر سنة ١٩٢٤ من حيث بدأت حياة البرلمان، على أن حظ مظلوم لم ينحل بانحلال الجمعية التشريعية، فقد انزلق أيضا الى مجلس النواب بل أضفى له رئيسا، ثم صار وزيرا للأوقاف أيضا يقتضى من الراتب ما يقتضى الوزراء !

ومظلوم باشا غنى فطبع الغنى، يجرى وراء الدنيا والدنيا تجرى وراءه حتى لم تجد بين أولئك الملايين الذين يحرزون سندات بلدية باريز عائلا مسكينا محتاجا تحبوه نمرتها الراجعة (١٠٠٠٠ جنيه) إلا أحمد مظلوم ! وله عمارات هائلة، وأطيان تُعبي مصلحة المساحة، وأوراق مالية يُخطئها العد، ونقود في المصارف لا تكاد تُحيط بها الأرقام، إذ هو في وسط كل هذا (يتيم) فرد لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت ولا ولد. ولكنه رجل شديد البر بأهله من أولاد الإخوة وأولاد الأخوات، فانه ليضن على نفسه بالدانق والسحتوت، ويقمع نفسه عن التطلع الى شىء مما تتطلع اليه أنفس الناس من ملاذ الدنيا ومُتَعها إيثارا لهؤلاء، فهل رأيت برا أعظم من هذا البر، وإيثارا أبلغ من هذا الإيثار ؟ !

وكان له بيت يسكنه في محطة (مظلوم) بالرمل ، فلاحظ أحد أصدقائه أنه اتخذ لجلوسه غرفة لا تصلح لهذا في حين قد امتلأ البيت بأحسن الغرف ، فراجع في هذا حتى فطن الى أن الباشا إنما اتخذ هذه الغرفة لمجلسه لأن مصباح الشارع يقوم بازائها فلا تجشمه نفقة الاستصباح !

وقد عمد الى كل قصوره فشق في كل جوانبها الحوانيت ومخازن التجارة حتى انتهى به الأمر الى العيش في (أوتيل كونتنتال) على أن يأكل في (كلوب) محمد علي فان الأكل فيه أضفى وأمرأ وأرخص !

وقد بنى له أخيرا بيتا صغيرا (فيللا) بازاء كلوب محمد علي أقامها من طبقة واحدة ، ويتساءل الناس لماذا لم يقيمها من طبقتين الأولى حوانيت ومخازن ، والثانية للسكن ؟ فأجاب أحد الظرفاء بأنه سينى الدكاكين هذه المرة في الطبقة العليا حين يعم نظام الطيارات إن شاء الله !

وبعدُ فما أعرف أحدا أمتن صبرا ولا أطول بالا من هؤلاء المساكين ورثة مظلوم ، فقد انتظروا أدهارا والأعمار لتصرم ، والأنفس لتخرم ، والباشا ، أحياء الله الحياة الطيبة ، لا يزداد على الأيام إلا قوة ، ولا يكسبه طول السن إلا شجبا وبفتوة . ولو كنت مكانهم لقطعت في أحد البنوك بحطيطه عشرة أوعشرين في المائة كما تُقطع الكبيالات ، ويحيا مظلوم باشا بعد هذا كما يشاء !!!



الوطنية الصحيحة تعمل كثيراً ولا تُعَلِن عن نفسها
قاسم أمين

طلعت حرب بك.

لا أحسبك تستطيع أن تتصور « بنك مصر » دون أن تتصور معه طلعت حرب ، ولا أحسبك تستطيع أن تتصور اسم طلعت حرب دون أن يتأمل لذهنك في الحال « بنك مصر » ! .

وكذلك شاء القدر أن يقرن اسم هذا الرجل بأجل الأعمال .

ولو أن رجلا حدثك من عشرينين بأن سيكون في مصر « بنك » يقوم على أموال مصرية ، وتقوم عليه أيدي مصرية ، لرددت حديثه من قورك الى التزيد في التمني والمبالغة في التخيل ! . ذلك أننا ، ولا أكتمك أشد ما ألح علينا من العلل ، إنما كنا نتكى في كل مهمنا على محض التمني وعقد الآمال بما عسى أن يصنع الغير لنا ! أما أن نضطلع بعبثنا ونعالج شأننا بأيدينا ، فذلك ما لم تكن تطيقه أذهاننا ! ولقد طالت علينا هذه الحال حتى دبّت إلينا الظنون بأننا لا نصالح لمعالجة عمل قومي ، لا من عجز عن العمل ولكن من توهم العجز عن العمل ، حتى توهنت نفوسنا ، وانبرت عزائمنا ، واتخذت هممنا ، وشاع فينا ضعف الثقة ، والثقة وحدها متكا كل ما ترى من عظيمات الأمور . وإذا كنا قد عالجنا كثيرا من المشروعات القومية ففشلنا فيها كلها ، فذلك لأننا إنما كنا نقدر هذا الفشل بحكم ما ملأ علينا أنفسنا من ضعف الثقة . وذلك شأننا كان في كل ما نتطاع إليه من مطالب الحياة ! .

وأذنت الله تعالى لنا بالعافية وأحسننا ، بعد يأس ، دَيْبِهَا في أنفسنا
في سنة ١٩١٩ وهبنا أمة تطلب ما تطلب الأمم ، وشيئاً كتنفها لتنهض بها
تنهض به في سبيل مجدها الأمم .

ولست اليوم بسبيل ما قام به أبطال النهضة الوطنية جملةً ، ولكنني
إنما أطوف بالحديث اليوم حول قطعة منه وهي النهضة المالية ، وحول بطل
من أولئك الأبطال وهو طلعت حرب . وهيئات أن أصف قدر هذا الرجل
الفاتح بأبلغ ولا أصدق من أنه أقام لمصر ”بنكا“ عظيماً يقوم على أموال كلها
مصرية ، وتقوم عليه أيدي كلها مصرية ، وما شاء الله كان ! .

وإذا كان طلعت قد أقدم على هذا كله بعد إذ تخاذل الناس وأصبحنا
ولا تظن نفس بنفس خيراً ، فقدّر أنت مبلغ ما تسلّح به هذا الرجل من عزم
وثقة حسبهما أن ملأ كلّ هذه النفوس عزماً وثقة ! .

وإذا كان طلعت حرب قد أفاد في سبيله بنهضة سنة ١٩١٩ واستغل
اشتعال النفوس بالوطنية ، وتنادى الناس بالعمل على أسباب القومية ، فقد
أضاف إلى العزم حملاً ، وجمع إلى الثقة والإقدام بصيرة وعلماً ، ذلك أنه
عرّف كيف يتخير أسعد الساعات وأكفأها لنجاح مشروعه العظيم .

لم يكن نجاح بنك مصر مقصورياً على ذلك المدى الذي تدور فيه منافع
البنوك ، ولكن كان له نجاح أوفى وأبلغ ، هو أنه بثّ فينا الثقة وردّنا في جليلات
الأعمال إلى أنفسنا ، وأقنعنا بالحس الصادق أننا في مجال العمل ، غير أهل
للخذلان ولا للفشل ؛ فهذه شركات جليّة يقوم بها طلعت حرب كذلك ،

ويرفدها بنك مصر أيضا ، وقد قامت كلها قياما كريما ، ونجحت كلها
نجاحا عظيما :

هذه شركة للطيج ، وهذه شركة للملاحة ، وهذه شركة للطبع ؛ ولعله
ستبعتها شركة للغزل والنسيج ، وأخرى لصنع الزجاج ، حتى إنى لأخشى إذا
تمادى طلعت في هذه الشركات الناجحة أن يظنَّ جَهْرَةَ الناس أن لا نجاح
لسعى الجماعة إلا إذا قام عليه طلعت حرب ، وإلا إذا ساند بنك مصر ؛
وفي هذا مَسَأة قد تستغرق ذلك الإحسان ! فليتدبر طلعت وليتدبر رجال
الأعمال .



وبعد فطلعت بك حرب وإن لحقته السَّن ما يرح له عزم الشباب :
حضور ذهن ، وقوة تصور ، ومثانة ذاكرة ، وجودة رأى ، وصبر وجلد على
معاينة كل ما يليه من أعمال جسام .

وهو رُبْعَة بين الطول والقصر ، غير متَّسق الجوارح ؛ مستطيل الوجه ،
لا بالقسم ولا الوسيم ^(١) ، لا يُرضيك ظاهره ؛ فإذا لا بستة تكشف لك عن
حسن محاضرة ، ولطف رُوح ، وسلاسة نفس ، على خلاف الظن به والرأى
بادئ الرأى فيه ! .

وإذا استحال هذا الرجل شِعْرا ما عدا أنت يكون قصيدة في ديوان
أبي تمام ، لا تُعجبك مطالعه على أنك تقع بعدها على أروع المعاني وأشرف
الكلام .

(١) القسم والوسيم بمعنى .

ولقد تلقاه يوما فُطِطَ لُحْكُ بَكل ما تَمَلِّك نَفْسُهُ من أنْس وبِشْر حتى لَتَحسب أنه أضْحى قِطْعَةً من نَفْسِكَ إذا كُنْتَ أَنْتَ لَمْ تُصْبِح قِطْعَةً من نَفْسِهِ ، ولقد تلقاه يوما آخر فَبِتَوَّلَاكَ بوجه عُبُوس تكاد تُنَمَثِلُ فِيهِ غَمًّا ورَعْدًا ومَطَرًا حتى لَتَشعر أَنَّكَ في حَضْرَةِ (زَلْزَلَةٍ) لا في حَضْرَةِ رَجُل ؛ تُعِينُهُ على ذاك الأَذَى عَيْنُ خَيْفَاءٍ ، فإن تَرَفَّقْتَ بِها قَلْتَ عَيْنَ حَوَّاءٍ ، حتى لَتُطْرِقِ وَأَنْتِ تَبْتَهِلِ إلى رَبِّكَ وتَسْأَلُهُ أَنْ يُلْغِي المَالَ مِنَ الدُّنْيَا لِكَيْلا تَحْتَاجِ إلى رُؤْيَةِ طَلْعَتِ حَرْبٍ !! ولقد لَتَبَحَّثَ الأَمْرُ وَتَبَيَّنَهُ فَإِذَا هَذَا (الحَرْبِ) سَلِمَ كُلُّهُ ، وإذا هَذَا التَّجَهَّمُ في هَذَا الوجه لا يَدُلُّ على أَيْةِ غَضاضَةٍ في تِلْكَ النَفْسِ ! إِنَّمَا الأَمْرُ جَمِيعُ الأَمْرِ أَنَّ الرَجُلَ تَنَوَّءُ بِهِ جَلَائِلُ مِنَ الأَمْرِ فِيهَا ما يَسْتَرْ وما يَسُوءُ ، وفيهَا ما يَبْسُطُ أَسَارِيرَ الوجه وفيهَا ما يُرَبِّدُ ضَوَاحِيهِ ، وَيَعَكِّرُ نَوَاحِيهِ ، وَذلك الحِظُّ الَّذِي يَدْفَعُكَ إِلَيْهِ وَهُوَ في إِحْدَى الحَالَيْنِ . فلو ابْتَغَيْتِ قَبْلَ أَنْ تُطَالِعَهُ عَرَّافًا أو ضَارِبَ تَحْتَ رَمْلِ أو (فَاتِحَةَ كَوْتَشِينَةِ) لَكَانَ أَرْفَقَ بِكَ وَأَيِّنَ لِحَظَكَ مَعَهُ !



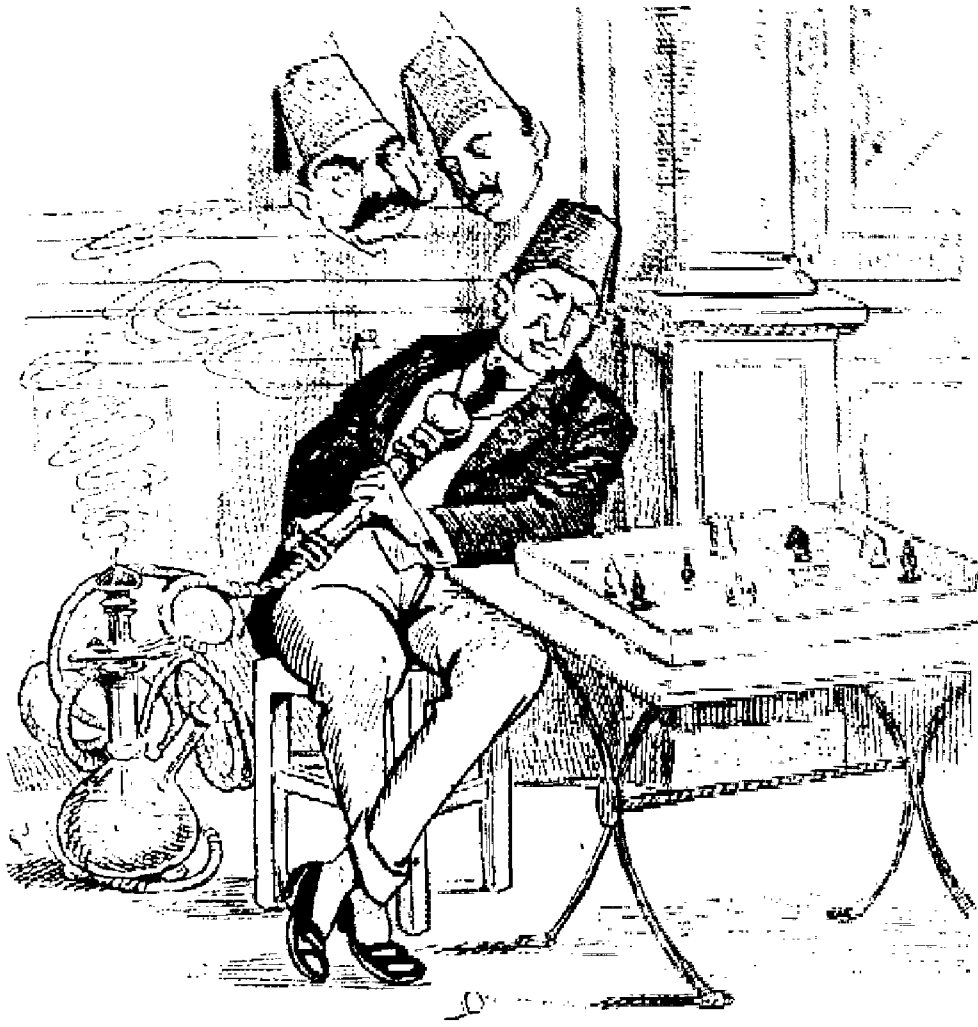
وإذا كَانَ في بَعْضِ طَلْعَتِ حَرْبٍ ما لا يُعْجِبُ بَعْضَ النَّاسِ فَلَا تُعْجِبُهُمْ لَمْ يَفْهَمُوهُ ، وإذا كَانَ فِيهِ ما لا يَتَحَمَّلُ بِالرَّجُلِ العَظِيمِ ، فَذلك أَيْضًا مِنْ خِلَالِ الرَّجُلِ العَظِيمِ ! .

وإنْ تَعْجَبُ لَشَيْءٍ في شَأْنِهِ فَالعَجِبُ كُلُّهُ أَنَّهُ عَضُوٌّ في مَجْلِسِ الشُّيُوخِ تَعْرِضُ عَلَيْهِ مِيزَانِيَّةُ الدَّوْلَةِ ، وَتَعْرِضُ عَلَيْهِ كُلَّ المُرَافِقِ المَالِيَةِ وَالاِقْتِصَادِيَةِ في الدَّوْلَةِ ، فيَجُولُ فِيهَا لُؤَيْسُ فَنُوسٍ ، وَيَصُولُ فِيهَا الشَّيْخُ حَسَنُ عَبْدِ القَادِرِ ،

ويضرب فيها شيخ العرب يس أبو جنيد بجراحه، وطاعت حرب مدير بنك مصر وأبو المشروعات المالية والاقتصادية في مصر لا تُؤثر عنه فيها طول «الدورة البرلمانية» كلمة واحدة ! ! .

ولعل هذا أنه يريد أن يربأ بنفسه ، أو بعبارة أخرى يريد أن يربأ ببنك مصر وملحقاته عن أى نزاع سياسى على العموم أو حزبي على الخصوص ، طلبا للسلامة وإيثارا للعافية .

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أذل الحرصُ أعناق الرجالِ



وجه مصطفی ووجه فرید . کلاهما لازم لوقت « الشَّئِل » فقط !

حافظ رمضان بك

لو أنك لم تكن رأيتَ محمد حافظ رمضان بك وبدا لك أن تُمثِّلَ رئيسَ
الحزب الوطنى القائم على المطالبة بمصر والسودان، مضافا اليهما الملحقَاتُ، سواء
منها ما فى يد الانجليز وما فى يد الطليان وما فى يد الأحباش، وجلاء الجيش الانجليزى
بلا قيد، ولا شرط، ولا مساومة، بل ولا مفاوضة ولا اتفاق، ولا . ولا .
الخ ... لما استطاع ذهنك أن يمثِّله إلا رجلا عنيقا حاد الطبع ثائر الأعصاب،
إذا قاوَلَك، وبخاصة فى شأن عام، تَفَجَّرَ عن مثل بركان ! ... ولكن ...
ما أعظم خيبة الخيال حين تقع عينك على حافظ رمضان بك ويضمك مجلسه،
فانه لا يروعك إلا أن ترى رجلا وادعا هادئ السَّعى بطيء الحركة الى حد
الجمود، تكاد تَمُطِّعُ بأنه قد فقد كل اتصال بين أعصابه وبين معارف وجهه .
حتى لتوشك ألا يتغير عليها شئ من مظاهر العواطف المختلفة . وانه ليتحدث
اليك فى القانون، ويتحدث اليك فى السياسة، ويتحدث اليك فى جميع الأسباب
الدائرة بين الناس فيجيد الحديث إجادة ينقطع من دونها الوصف، جزالة
علم، وصحة رأى، ومتانة حجة، وقوة بيان، فى حلاوة نبرة وعدوبة صوت .
وانه ليشير عواطفك . وانه ليبيِّعَ معارف وجهك على التشكُّل طوعا لما أثار
حديثه فيك من عاطفة، أما هو نفسه فساكنٌ وادع، فتصرف عنه وأنت
تكاد تحسب أنك إنما كنت تسمع الحديث من (فونغراف) متقن بديع يدور
فى هيكل إنسان !

والواقع أن الله تعالى قد وهب هذا الرجل قَصْدًا وَاَعْتِدَالًا في كل شيء،
فهو معتدل الخلق والتكوين، معتدل الأخلاق والسجايا، معتدل الحركة
والسعي، معتدل الحديث والرأي. وهو، في الوقت نفسه، رئيسُ الحزب
الوطني! ومبدؤه المطالبة بمصر والسودان والملاحقات، وجلاء الجيش
الانجليزي عن جميع البلاد، بلا مساومة ولا مفاوضة ولا اتفاق!

الحق أني لو كنت في موضع حافظ رمضان بك لكانت مهمتي أشقَّ
مهمة رجل في العالم. على أن حافظ بك يضطلع بها في غير كُلفة ولا عناء!
وللعظيم العظام.



ومحمد حافظ رمضان ابنُ المرحوم حافظ بك رمضان، وكان رجلاً منقطع
النظر في العلم المسالي يوم لم يكن لمصرى في هذا الباب خطر، وكانت أعظمُ
المصارف، الأجنبية بالضرورة، ترجع الى رأى حافظ بك في أدق مسائل
الفن وأبعدها أثرًا.

وَأَنْجَبَ عِدَّةَ أولاد وأحسن تَأْدِيبَهُم وتعليمَهُم فخرجوا جميعُهُم رجالاً
ممتازين، فيهم القاضى وفيهم المحامى وفيهم الجندى، وها أنت ذا ترى أحدهم،
وهو الذى نعقد له هذا الحديث، في كبار المحامين ورئيس حزب جليل الشأن
في البلاد.

نعم، لقد بانت مواهب حافظ من يوم دَرَج لطلب العلم، وما برح يترع
فيه أقرانه حتى أحرز إجازة الحقوق (ليسانس) وأقبل على المحاماة مُجَدِّدًا أُمِينًا

حتى تَمَّتْ كِفَايَتُهُ وَبُعْدَ فِيهَا صَيْتُهُ وَلَمَّا يَزَلْ بَعْدُ فِي فَوْعَةِ الشَّبَابِ^(١)، يُعَيِّنُهُ فِيهَا
عِلْمُ غَزِيرٍ، وَعَقْلُ شَدِيدٍ، وَبَدِيهَةٌ حَاضِرَةٌ، وَحِجَّةٌ قَادِرَةٌ، وَبِلَاغَةٌ سَاحِرَةٌ؛
كُلُّ أَوَّلِيَّتِكَ فِي صَوْتِ كَأَنَّمَا تَحْتَاجُ بِهِ أَوْتَارَ عُودٍ . وَكَذَلِكَ كَانَ حَافِظُ بَكْ
خَطِيْبًا رَئِيسًا جَلِيلًا .

وَقَدْ اتَّصَلَ مِنْ صَدْرِ أَيَّامِ الشَّبَابِ بِفَقِيدِ الْوَطَنِ الْمَغْفُورِ لَهُ مُصْطَفَى
كَامِلٍ بَاشَا وَظَلَّ مَعَهُ أَنَّى أَنْ قُبِضَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، فَكَانَ شَأْنُهُ كَذَلِكَ مَعَ
الْمَغْفُورِ لَهُ فَرِيدُ بَكْ إِلَى أَنْ شَطَّتْ بِهِ النَّوَى ، فَمَا بَرِحَ هُوَ كَذَلِكَ مُوَصُولَ الْأَسْمِ
بِالْحَزْبِ الْوَطَنِيِّ حَتَّى اخْتِيرَ لَهُ رَئِيسًا .

وَمِمَّا يُذَكِّرُهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّهُ كَانَ دَائِمًا شَدِيدَ التَّوَافِي لِأَسَاطِينِ الْأَحْزَابِ
الْأُخْرَى حَتَّى فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي كَانَ السَّيِّدُ وَفِيقَ يَرْمِيهِمْ بِالْمُقْدِعَاتِ فِي جَرِيدَةِ
الْحَزْبِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ !

وَلَقَدْ يَبْدُو لَكَ حَافِظُ رَمَضَانَ بَكْ كَسُولًا لَا يُحِبُّ أَنْ يُجَسِّمَ نَفْسَهُ مِنْ
الْأَمْرِ جَلِيلًا ، عَلَى أَنَّهُ إِذَا جَدَّ الْجَدُّ كَانَ أَنْشَطَ مِنَ الْكُوكَبِ السَّيَّارِ .

وَمَنْ أَعْجَبَ مَا يُؤَثِّرُ لَهُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لَهُ فِي صَيْفِ الْعَامِ
الْمَاضِي ، إِذْ هُوَ فِي أَوْرَبَا ، أَنْ يَتَسَلَّقَ قِمَّةَ جِبَالِ الْأَلْبِ (Mont Blanc)
وَعَبَثًا يَحَاوِلُ صُذْقَانَهُ أَنْ يَصْرِفُوهُ عَنْ هَذِهِ النِّيَّةِ ، وَالْعَبَثُ بِالْعُرُوجِ إِلَى قِمَّةِ الْأَلْبِ
إِنَّمَا هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعَبَثِ بِالْحَيَاةِ نَفْسَهَا . وَيَجْمَعُ حَافِظُ هِمَّتِهِ وَعِنَادَهُ مَعًا ،
وَيَخْوِضُ مَهَاوِيَّ الْمَوْتِ خَوْضًا حَتَّى يَبْلُغَ ذَايَتَهُ ، ثُمَّ يَتَدَلَّى عَنْ قِمَّةِ الْجَلِ
(بِالسَّلَامَةِ) وَالْمَوْتُ خَزْيَانٌ يَنْظُرُ ! وَيُظَافَرُ بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ (شَهَادَةِ الْمَعْرَاجِ إِلَى

(١) فَوْعَةُ الشَّبَابِ : أَوَّلُهُ . (٢) جَمْعُ صَدِيقٍ كَالْأَصْدَقَاءِ .

قمة الألب) ولم يظفر بها من المقادير إلا قليل : فكان أيضا حق (Sport)
رغم ما يُرمى به من فرط الكسل وشدة الخمول !

وهو شديد الولع بالشطرنج حتى لقد يجلس الى رُقعته خمس ساعات
متواليات لا يلحظه فيها صجر ولا يتدخله سأم .

ولقد يظل طوال هذه المدة وفم (الشيشة) في فمه ، أو فاغرا فاه فلا تسمع
منه إلا تنمنا يهمس به أحيانا ، أو (كش مات) في غاية كل دسيت ينعقد له
فيه الظفر !

وبعد فلا أدري أكان حافظ رمضان بك في قرارة نفسه ومطاوي
حسه شاعرا يُخلّق في أجواز الخيال أم لا ؟ على أن جلسته الطويلة يُوسد
فيها خذه على كفه مهدل الشفة ثابت المحجّرين في جانب الأفق ، لقد تدلّك
على أنه شاعر بعيد الخيال ، ولعل هذا المعنى فيه هو الذى يتخطى سائر مواهبه
فيعقد الصلة بينه وبين مبادئ (الحزب الوطنى) !

ومع هذا كله فلا تحيص من أن تقع المشاكل بين حافظ بك وبين نفسه
كلما (زنتته) الحوادث بينه وبين مطالب حزبه . ولكن حافظ بك ، كما أسلفت
عليك ، رجل خراج ولاج ، لا يُغم عليه مُشاكل ولا يُعييه أمر جسام ، فاذا
حزبه من ذلك شيء عمد الى حل بسيط سهل معقول مقبول ، وهو أن تُعجله
مسألة (فيحط كتف) على أوروبا معذورا مشيعا بطيب التمنيات !

أليس هذا حلّا سائفا معقولا ؟

وبعدُ فاذا كان التطرُّف في الرأي السياسيّ ضرباً من الشَّعر، فما أُعذَّبَ هذا الشَّعرَ وما أُحوجَ تكافؤُ النَّزعات السياسيَّة اليه، على أنه إذا تجاوز حدَّه ونُخرجَ عن أفقه فقد أصبحَ له في توجيه سياسة البلاد شأنٌ آخر .

ولو كان لي من الأمر شيءٌ لدعوتُ بشركة (حافظ رمضان — عبد الحميد سعيد اخوان) نَخيرَتُها أمرين : إما ترك التَّغالي في الاستجوابات والعوض على الله ، ولو مؤقتاً ، في المُلحقات . وإما أن تتولَّى الوزارة ، وعندها مُهلَةٌ شهرين لتجيء فيها بالنيل من منبئه الى مَصَبِّه ، والمُلحقات وملحقات المُلحقات . والجلاء الكامل بلا مساومة ، ولا مفاوضة ، (وكان) بلا اتفاق ! على شرط أن تُؤخذ عليها التعهدات ، بعدم (حططان الكتف) على أوروبا وقت الأزمات !!!



على مُفَوِّضِينَا وَقَنَاصِلِنَا فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْعَالَمِ مُوَافَاتِنَا تَلْغَرَايَا بِأَنْحَرِ (مُودَة) !

ابراهيم وجيه باشا

طويل ، ضافى الجسم ، مترانخى الأطراف ، تَنَسَّرَح العَيْنُ منه فى منظر غير مؤتلف ولا متَّسِق ، وبعبارة أخرى إن عينك لا تكاد تسقط عليه حتى تشعر بما بين خلقه وبين (قيافته) من سوء التفاهم ! فهو شديد العناية بهذه (القيافة) . وهو لا يُعْنَى بشيء من مظاهر الدنيا عنايته بها . وإنه ليَحَيِّلُ الى أنه يَطْوِي عاتمة ليله وصَدْرًا من نهاره فى مطالعة مجلات (المُودَّة) ونشرات (الشيك) وكلما سقط فيها على طَرِيف أسرع اليه فتَجَمَّل به وتَأَنَّق ، وتَحَلَّى به وتَأَلَّق : فمن خواتيم تلمع فى الخناصر والبناصر ، من شَتَّى الألوان فى شَتَّى الجواهر . ومن رِباط للرقبة (كراوات) تختار العين فى أزرقه وأسوده وأحمره ، وأبيضه وأخضره وأصفره ؛ حتى كأنما قُدَّ من أنوار بُسْتان ، فقيه من كل زهرة زَوجان ، تجرى كلُّها فى مذاهبها حتى تلتقى عند لؤلؤة بيضاء ، أو زمردة خضراء ، أو ياقوتة حمراء ، فكأن هذا (الدبوس) من تلك الألوان ، ملتقى العُشاق ومجتمعُ الخُلان . ومن حلة محبوبكة ؛ (محذقة) مسبوكة ؛ كأنما مَوَّه بها جلده تمويهها ، فاذا تبدَّى لك فيها حسبته عاريا وهو كاس ! — الى حذاء ! وناهيك بهذا الحذاء ! ليس يَتَّخِذ الباشا حذاءه من مصر كلها ، ولا من أفريقيا أجمعها ، ولا من كل ما يَدَسَّى من سِلَع الغرب الى الشرق ، بل انه يُفَصِّلُ له تفصيلا من مصنع (lob) الشهير فى لندن ، وثمنُ الزوج ، على ما يروى الباشا

نفسه، تسعة جنهات انجليزية (طبعاً) ، أما الحذاء نفسه، كما شهدناه، فدقيقٌ لطيف ، رقيقٌ خفيف ، قاس ، على نعومته ، شديدٌ القسوة حتى ليأبى إلا أن يُخرج أسيرته (رجُل الباشا) صغيرةً دقيقة هيفاء !

فاذا أنت ارتفعتَ بالنظر الى طَرَفِهِ الآخر رأيت على رأسه طربوشاً طويلاً ضيقاً أيضاً ، على انه ، والله الحمد ، على رأسه منسَّقٌ مسبوك ! وهو يُميله دائماً الى ناحية من رأسه فيصوِّر لك من فضل جبينه زاوية لا أدرى مقدارَ حظها من الهيبة أو الجمال !

ولو تمثَّلته وقد بُعدَ ما بين كتفيه ، وتقارب ما بين كَشْحَيْهِ ، وما يزال يتقارب في منازلهِ الى مُسْتَدَقِّ حذائيه ، لرأيت منه مخروطاً معكوساً ، أو على الأصح قِيعاً مكفوءاً !

قلت لك في صدر هذا الحديث إن بين خَلْقِ وجيه باشا وبين (قيافته) افتراقاً وسوء تفاهم ، وأُكْرُ على هذا الآن فأقول لك : انه مع كل هذا التأنق ، وكل هذا التجمُّل ، وكل هذه النفقات ، وكل هذه التكاليف لا يزيدك في مَرَأَهُ على أميرالاي في المعاش !!!



وابراهيم وجيه باشا رجل طيب القلب لا يَصْدُرُ عن أذَى ولا يصدر عنه أذى ؛ متواضع النفس ، متواضع التفكير. لقد أصبح في الواقع وكيلاً لوزارة الخارجية في الدولة ، ولكن أدبه وتواضعه لا يُطاوعانه قط على الترفع الى هذا المعنى ؛ وانهما ليغضَّان حتى من تفكيره في مُقْتَضَيَاتِ ذلك المنصب الرفيع !

إنه لرجل متواضعٌ حقاً في كل شيء ! ولو أنك داخَلته مهما داخَلته ولا بَسْتَه مهما لا بَسْتَه ، لا يمكنك أن تُحَس منه أىّ اعتداد بالنفس يشعرك أنه أصبح وكيلاً لدائرة ، فضلاً عن أنه أصبح وكيلاً لوزارة خارجية الدولة نفسها ! وأيسرُ الدلائل على هذا موقفه العتيد في مجلس النواب يوم ثار حديث (بيوت هوس) وما اقتضى خزينَةُ الدولة من نفقاتٍ حِسَام !

وهو كذلك رجل متواضع الحديث ، لقد يستغرق المجلس بالحديث عن نفسه لا عن مركزه في الحكومة ولا عما يَعْتَرِي الدولة من مشا كل ومتاعب في جغوب ، ولا مما يراد من فرض امتيازات لإخواننا الشوام أيضاً في مصر ، بله المفاوضات المقبلة في تقرير مصير الدولة — بل إنما يتحدث عن المفاوضات المقبلة بينه وبين طاهيه . وان له لطاهيا عظيما ، وان طاهيه عبقرى ، يَصْدَع بعبقريته حدود الفن ، أليس الطهاة جميعا يُقَرَّبون ، يوم الوليمة الى الضيفان ، (البامية) بعد رأس الطعام (الحمل أو الدندى أو السمك) ؟ ولكن طاهيه قَرَّب مرة لضيفانه بعد رأس الطعام صَفْحَة من الفاصوليا الخضراء مباشرة ! . أليس هذا عبقرية تستحق كل إعجاب وإطراء ؟ !!! وسبحان من أودع كل قلب ما شَغَله ، وإذا كان قلب وجيه باشا مشغولا بأشياء وأشياء ، فإن قلبه من شؤون الدولة كلَّها هواء .

يَهْرول في الصغير إذا رآه * وتُعْجِزه مُهِمَّات كِبَارُ

وقد نسيتُ أن أذكرك أن للبasha شار باليقا هو الآخر ، ظريفا ، دائم التشكُّل والتكيُّف بحسب (آخر مودة) فتراه مرفوعا ومرةً مخفوضا ، وتارة

مفتولا وتارة منقوضا، وأنا مر سلا وأنا (مكويًا)، وحينما مستقيما وحينما ملويًا،
وأسودَ يوما ويوما أغبر، وأصفرَ طورًا وطورًا أحمر .

ولا نحب أن نترَ الرجلَ حقه ، فقد أحرزَ إجازةَ الحقوق (ليسانس)
في غير عسر ولا تأخيرٍ في الطلب ، ثم دَلَفَ الى مناصب القضاء فَرَقِيَ في درجتها
واحدة بعد واحدة معروفًا بالاستقامة والتزاهة والنشاط وعدم الميل مع الهوى ،
وزاملَ ثروت باشا في نشأته كما زاملَه في بعض المناصب التي تولَّاهَا ، وفي النهاية
عَيَّنَ مستشارًا في محكمة الاستئناف المختاطة . فكان خيرَ مثالٍ للكفاية
والاستقامة ، فمستشارًا ملكيًا . وهنا بدأ القلق يَدُبُّ الى حظه من التوفيق
في مناصبه الحكومية !

وإذا كان قد نَفِضَ عن القضاء جملةً وَقُلْدَ منصبًا سياسيًا (وكالة الخارجية)
وبخاصة في العهد الحاضر — عهدِ المسؤوليات الكبرى — فلم يَتِمَّكَّنْ منه
تَمَكُّنَهُ من منصب القضاء فليس الوزر عليه هو ، ولكن على من أخطأهم
فيه التوفيق !



فان لم تَكُ (المرأة) أَبَدَتْ وَسَامَةً * فقد أَبَدَتْ (المرأة) جَبْهَةً ضَيْغِمَ

حافظ ابراهيم بك

وجاءت نوبة صديق حافظ في (المرأة) ولم تُغْنِ عني المطاولة ولا كثرة الدِّفاع، كذلك حتم أصحاب «السياسة الأسبوعية» وبذلك جَزَم القضاء :
فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكِي * وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسِعٌ

إذن ساجلو حافظا في هذه « المرأة » وأرمي فيه بالقول، وإذن سأدخلُ في الورطة وتحقّ على الكلمة في كل حال ! ويخّ نفسي من عنتِ أهل العنتِ من القراء، فإنني إن قلت فيه خيرا قالوا : شهادة صديق لصديق فهي مُهَمّة مُهدّرة، وإن قلت شرا قالوا : ما أنكره للودّ وما أكفره ! .

وما لي لا أعود من ألسن هؤلاء بالحق، فالحق أجْدَى من مصانعة هؤلاء .
وعلى هذا فإنني سأطليق كلمة الحق في صديق حافظ ، وأعود بالله تعالى أن يلحقني فيه قولُ ذلك الحكيم : «إن قول الحق لم يدع لي صديقا» ولا تنس بعد هذا ياسيدي القارئ مبلغ ما يضجّي به الكاتب المسكين في سبيل رسالة يؤذيها قلمه اليك لتلهو بها خمس دقائق أو ستا، وهو لا يطمع منك في أكثر من أن تقصّد في حكك، وترفّق في نقدك وشتمك، والتضحية في هذه المرة ليست بجسم يتعب ، ولا بمال يغصب ، ولا بقلم يغلب ، ولا بسب يُجلب ، إنما هي باستهداف ودّ دام إحدى وعشرين سنة للجلجلة بله الزوال،

وهي كانت متن الصبا ، وهي كانت نضرة العمر ، وهي هي الذكري الباقية
لحلو الحياة لمن أبرمه مر الحياة !

مالى قد غشيني من هذه العواطف المحزونة الواهية ، حين عرض لى أسم
حافظ ما لم يغشنى قبل لأسم إنسان ؟ وفيم كل هذا ولعل لا أصيب فى صديق
إلا خيرا ! حقا إني لأخشى أن أكون اليوم مريضا وأن الأمر كله من لوثة
الأعصاب . فإن كنت معافى صادق الوزن فإننى أرجو أن يكون صديق
حين تقع له هذه المقالة معافى مترن الأعصاب .



حافظ إبراهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجمع له ، ويكره القبح وينعنى
على أهله ، يحابه بذاك مجابهة لا يتقى فى القول ولا يتحرف ، وما إن طلع عليه
فتى دميم الخلق غير مستوى معارف الوجه إلا قال له : يا فتى ، ليس الوزر عليك
بل على أبيك لأنه لم يؤد مهرا ! وإذا اطردت نظرية حافظ فلا شك فى أن
المرحوم والده تزوج على الطريقة الإفرنجية فلم « يدفع » مهرا بل هو الذى أخذ
« الدوطة » !

جَهْمُ الصوت ، جَهْمُ الخلق ، جَهْمُ الجسم ، كأنما قد من صخرة فى فلاة .
موحشة ، ثم فُكّر فى آخر ساعة فى أن يكون إنسانا فكان « والسلام » !
أما ما يدعى قَهْ فكَأَنما شق بعد الخلق شقا ، وأما عيناه فكَأَنما دُقتا بِمِسمارين
دقا . وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ، فكَأَنما عُهد به الى « نقاش » مبتدئ
تشابهت عليه الأصباغ والألوان فداف أصفرها فى أخضرها فى أبيضها

في «بنفسجها» ، نخرج مَرَجًا من هذا كَلَّة لا يرتبط من واحد بسبب ، ولا يتصل بنسب . وإنك لو نَضَوْتَ عنه ثيابه وألبسته دُرَّاعَة من دونها سراويل ، وأفرغت عليه من فوقها جُبَة ضافية ، وتوجّهت بعمامة عظيمة متخالفة الطيات ، نلته من فورك دِهْقَانَا من دهاقين الفرس الأقدمين ! فإذا جرّده كله وأطلقته في البرّ حسبته فيلا ، أو أرسلته في البحر ظننته درّفيلا ! ... ولكن ! ... ولكن آكشِف بعد هذا عن نفسه التي يحتويها كل ذلك ، فلا والله ما النور بعد الظلام ، ولا العافية بعد السَّقام ، ولا الغنى بعد البؤس ، ولا إدراك المنى بعد طول اليأس ، بأشهى اليك ، ولا أدخل للسُرور عليك من هذا حافظ ابراهيم !

خفيف الظل ، عَذْب الروح ، حُلُو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة ، إذا كُتِب لك يوما أن تشهّد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك أنك في بستان تعطّفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله ، وأشرق نرجسه وتألّق ورده ، فأذ كراك طلعة الحبّ : تانك عيناه وهذا خذّه ! وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجب لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت ! والبدر في مُلكه بين الحجّرة والجوزاء ، يخلع على الروض حُلّة فضّية بيضاء ، فلا تدري أأمست السماء في الروض ، أم أمسى الروض في السماء ؟ .

ولم أرقط رجلا أسرع منه حفظا ولا أثبت حافظا ، ولقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فتري نظره يثب فيها وثبا حتى يأتي على غايتها ، وإذا هو قد استظهر أكثر جملها ، أو أبياتها إن كانت قصيدا ، وإذا هي ثابتة

على قلبه على تطاول السنين ، كذلك لم أرقط رجلا اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام مرسلا ومقننى مثل ما اجتمع لحافظ ابراهيم ، فكان حقا له من اسمه أوفر نصيب . واذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرق وهى لك أن يحاضر كحافظ فى الأدب لصب على سمعك عصارة الشعر العربى وأبدع ما انتصحت به القرائح من عهد امرئ القيس الى الآن . ويمكنك أن تعد بحق حافظا أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربى عرف الى اليوم . وليتهم ، إذ يشرف على السن ، بدل إحالته على المعاش يحيلونه على أحد (دواليب) القسم الأدبى فى دار الكتب ، إذن لعصموا عليها ذخيرة هيات أن تعوض على وجه الزمان .

واذا أردت أن تعرف لون شعره والى أى وادٍ من أودية الكلام ينسب ، فارجع الى أكثر ما يهتف به ويرتده من شعر من قبله من الشعراء ، وإنه فى هذا الباب ليؤمن قبل كل شئ بالصنعة والديباجة ونسج الكلام ، وما بعد هذا عنده ففضل . وهو يرى ، ولقد يرى معه كثير ، أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق بدقائق المعانى وإن ترايلت من دونها الالفاظ ، وأن أدق المعانى وأجلها لقد تقع للدهماء فى حوارهم ومنازع كلامهم ؛ أما إشراق الديباجة ونصاحة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر . أليس يهرك ويروعك ويُسبغ فيك كل الطرب قول البحترى مثلا :

ذاك وادى الأراك فاحبس قليلا مقصرا فى ملامية أو مطيلا

لم يكن يوما طويلا بنما ن ولكن كان البكاء طويلا

وقوله :

وقفه بالعقيق نطرح ثقلاً * من دموع بوقفه في العقيق

وقول الشاعر :

يا ليت ماء الفرات يُخبرنا * أين تولّت بأهلها السفن

وقول الشاعر العربي :

فسائل بني جرّيم اذا ما لقيتهم * وسعدا اذا حجّت عليك بنو سعد
فإن يُخبروك الحق عني تجدهم * يقولون أبلّى صاحب الفرس الورد

وغير هذا من رائع الشعر ما لا يتناوله الحصر .

وبعد، فأى معنى فى مثل هذا يرتفع على ما تبدّل به العامة فى أحاديثهم وأسمارهم وفنون مناقلاتهم ! إنما خطره كله فى لطف الصياغة وشدة القول وقوة الأسلوب، ولو قد ذهبت تؤدّى بلغة أخرى أنخرّ مانظم البحرى وأبو تمام وأضرأبهما من أعيان الشعراء ما خرجت من ذاك بجليل، بل لو أنك تعمّدت أبلغ ما قالوا فنقضت غزله وثمرت نظمه ما عدّا أن يكون كلاماً من أوسط ما اعتاده الناس من الكلام !

هذا رأى حافظ فى الشعر، وتلك أيضاً صورة من شعره ! مشرق الديباجة جزل اللفظ، صافى القول، محكم النسيج، رصين القافية. ترى معناه فى ظاهر لفظه، فإذا أقبل عليك يُنشدك من شعره أبصرت البيت يستشرف وحده للقافية استشرافاً حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها حافظ ابراهيم .

وحافظ، كما أسلفتُ عليك مؤمن كل الإيمان بالصنعة، ولقد يَسْنَحُ له المعنى الدقيق فيحاول أن يُشكِّه بالقريض، فإن أصابه في غير قلَق ولا إعنات للفظ أو إخلال بقوة النظم، وإلا صَرَفَ لغيره وجه القريض، ولربما أصاب المعنى الرفيع فيسره للنظم تيسيرا حتى يخيل لك، اذ تلتوه، أنك في كلام من جنس سائر الكلام ! .

وهو، كما حدثتُك، حاضر البديهة رائع «النكتة» يتعلق فيها بأدق المعاني في جميع فنون القول؛ فلا يحتويه مجلس إلا رأيتَه يتزَيَّ تَزَيًّا من صَحِيح ومن طرب ومن إعجاب . وهو كذلك شديد الفطنة حلو الملاحظة لا يكاد يعرض لسمعه أو لبصره شيء إلا وَجَّهَ عليه رأيا طريفا يصوغه في «نكتة» عجيبة قد تستقر على سطوح الأشياء، وأحيانا تغفل إلى الصميم حتى تتكشف الأيام منها لآعن طُرْفَةٍ متطَرَّف ولكن عن رأى حكيم ! وهو لا يتعاصى في تطرفه ولا يتعرج، فتراه يقتحِم عليك بتندُّره كل مداخلك أئى سَنَحَتْ له أفتحاما، فيصيب من خَلْقِكَ ومن ثيابك ومن أثاث بيتك ومن طعامك ؛ على أنه في كل هذا مُرضيك ومؤنسك وباسط أسارى وجهك إن لم يُفرِّج بالضحك من ثيابك ، فاما اذا كنت رجلا ضيق العطن مُتَرَمَّت النفس فلا خير لك في مجلس حافظ إبراهيم .

وهو أجود من الريح المُرسلة ، ولو أنه أدخِر قسطا مما أصابت يده من الأموال لكان اليوم من أهل الثراء، على أنه مافئ طوَال أيامه يشكو البؤس حتى اذا طالت يده الألف جُنَّ جُنُونُهُ أو ينفقها في يوم إن استطاع .

فإذا استغلقت عليه أحيانا وجوهُ السبل لإتلاف الأموال عد هذا أيضا من معاكسة الأقدار ! وامل هذا من أنه نصيحت شاعريته في باب (شكوى الزمان) وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يترج يطلب البؤس طلبا ويتفقده تفقدا إيثارا لتجويد الصنعة والتبريز في صياغة الكلام . وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظا يحققها بيده إذا قصرت في تحقيقها الأيام . وإنه لفنان (Artiste) حقا ، وإن فيه لكل أخلاق الفنانين : تَوَلَّى بالطعن من جميع أقطاره ، فقد يسامحك ويتراخى بالصفح عنك ؛ أما أن تتولى فنه وتسلك بالطعن صنعته ، فذلك الكسر الذي لا يُجبر ، وذلك الذنب الذي لا يُغفر ؛ وذلك مثار الدمع ما يزال هاميا ، وذلك مُتَرَّى الجرح ما يفثا على الزمان داميا .

والعجب أن حافظا نفسه ضيق العطن قليل الصبر سريع الغضب ، ويأويل الأرض منه والسماء إذا تعجل أمرا فألثت دونه دقيقة واحدة ، إذن لُهاج هياج الصبي فما يُجدى فيه التصبير ولا التعليل . وما أبدع غضبته وما أحلاها ساعة يهَمُّ بركوب مركبة في الطريق فيرى الخيل قد خُلعت عنها أرسانها ، وهناك تسمع منه ، وهو يكاد يتميز من الغيظ ، أبدع النكات وأدقها ، وقد عَجَلت إليه الشيخوخة قبل السن ، وضربته أعراض السبعين اذ هو لم يُدَرِّف كثيرا على الخمسين ، فغاض من أنسه غير قليل ، وشغل بالمرض أو بتوهم المرض ، فما يلقاك إلا أبئك علة طارئة وطالعك بشكاة جديدة ، وتقسم أوهامه مراجعة الأطباء والمتطبين ، وترديد النظر في كتب الصحة والأقرباذين ،

فما سمع بعله إلا أحسن أعراضها ، ولا وقع على عَقَّارٍ من العقاقير إلا آتخذه
وتداوى به !

ومن أظرف نوادره أن صديقها له لقيه مرة في الطريق وهو متقبض
النفس متربّد الوجه فسأله ما به ، فقال له : (إن المُصران الأعور عندي
متبهب) فقال له صاحبه : وبماذا تشعُر؟ فقال : أشعُر بوجع شديد هاهنا ،
وأشار بيده الى جنبه الأيسر ، فقال له : (إن المصران الأعور) إنما يكون
في الجنب الأيمن لا الأيسر ! فأجابه حافظ من فوره : (يمكن أكون أنا
ياسيدي أعور شمال) !!!



ولا أحسب شاعرا يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ ، وإن له لصوتا جهوريّا
نغمًا رائع المقاطع ، فاذا هو وقف يُنشد الجماهير هزّها هزّا ورفع بالترتيل حظ
الكلام درجات على درجات .

ولانس لحافظ يدا جليلة على اللغة العربية بما نظم وما نثر إنشاءً وترجمةً ،
فلقد طالما أستخرج من مجفّوها صيغًا طريفة بليغة أدت كثيرا من الأسباب
الدائرة بين الناس مما تحرك معانيه في الأنفس ويُعي أدأؤه على الأقلام .

وحافظ ابراهيم ، ولا شك ، من مقارح هذا العصر ومن مباهجه معا .
أما الله أن يسط في عمره وأن يرزقه العافية ، على أن يقتنع هو أنه
في عافية !

وبعد، فاذا كنت يا صديق قد وَتَرْتُكَ بعضَ حقك ولم أعرض جميع
مزاياك فلكيلا أجعل لأحد سبيلا الى الآتِهام ؛ واذا ظَنَ بي شائئُ أنى
لم أَتَسَقَّطَ كلَّ هَنَاتِكَ ، إن كانت لك هَنَاتٌ أُخرى ، فما كان الودَّ ليرينى إلا الخيرَ
فى أصدقائى ؛ على أننى أعتذر اليك فى الأولى ؛ وأعتذر الى القراء فى الثانية ،
وأستغفر الله فى الحالين ، وأسأله تعالى أن يصْرِفَ عَنى مُحَنَةَ الكِتَابَةِ ويتوب
علىَّ من فن الكلام .



وَهَمَّهَا فِي الْعُلَا وَالْمَجْدِ نَاشِئَةٌ * وَهَمُّ أَتْرَابِهَا فِي الْأَهْوِ وَاللَّعِبِ

هـدى هانم شعراوى

لقد تعرف أن العرب إنما أخذوا علم المنطق عن اليونان وعربّوه تعريبا ، ودوّنوا فيه الكتب ، وأشاعوا البحوث ، وضربوا الأمثلة ؛ على أنهم فى كل ذلك لم يخرجوا عن الأفق الذى رسمه اليونان حداً للمنطق تدور فيه قضاياها ، وتكيف أقيسته فى أشكاله المقسومة ؛ وكل أولئك مرّده عندهم الى العقل ، والى العقل وحده ، فأما القضايا الوجدانية ، وأما الأقيسة الشعرية ، فلا اعتبار لها ولا اعتداد بها فى معرض الاحتجاج .

وبهذا أضخى المنطق شبيها بالرياضة إن لم يكن شعبة منها . وأما الفلسفة الحديثة ، فلسفة الغرب ، فقد تبسّطت قواعدها حتى تناولت نُجوى القلب وحديث الوجدان ! وأدخلت هذا فى جملة الأقيسة التى تُعتبر نتائجها ؛ ولقد يكون هذا من الحق ، فإن شعور النفس أحيانا لا يقل صوابا عن حساب الذهن ، بل لقد يسبق الوجدان أحيانا ويستشرف الى ما لا يهتدى اليه العقل ، وينقطع من دونه جهد التفكير ، فليس عدلا وليس حقا أن يُسقط الإنسان هذه الأداة القوية النافذة من أسباب تعرفه واستكناهه لحقائق الأشياء !

على أن هذا أيضا لا يسلم من الخطأ ، فكثيرا ما يكون موقع الرأى فى الوجدان أثرا من آثار الهوى ، أو حكم البيئة ، أو الظرف الخاص ، أو طول

الاعتیاد، أو نحو ذلك مما نتج به نزعات النفس دون أن يكون للحقائق فى نفسها أى اعتبار .

وإنما سقت هذه المقدمة الطويلة، المملة أيضا، لأقرر أنى، فى مسألة المرأة رجل رجعى، لا أرد هذا الى قياس منطقى عقلى، على الطراز القديم، إنما مرّد الأمر كله الى قياس وجدانى على الطراز الحديث . نعم لا أدعى أنى حرّكت فى الأمر عقلى فأثبت لى، بعد ترتيب الأقيسة المنطقية، أن « نهضة المرأة المصرية » غير ميسورة أو غير صالحة، إنما هى نزوة الوجدان لا تلهمنى من هذا إلا أسى وتطيرا !



وأهاب بى صديق : « فيم تقصّر مراياك على الرجال وفى النساء من هنّ افضل من كثير؟ » وأقول من تنظّرت لى من سيدات العصر، من غير تردّد، هدى هانم شعراوى، ولكن ! ... سرعان ما مثّل لى تداعى المعانى أيضا مسألة « النهضة النسوية » إذذن سأكتب فى السيدة هدى هانم شعراوى، وإذن سأعرض، برغى، لحديث « النهضة النسوية » .

على أنى لم أر السيدة النبيلة، ولا بد لى قبل أن أريها مرأتى أن أراها، ولا بد لى قبل أن أتحدث عنها أن أتحدث اليها، فكيف السبيل الى كل ذلك ؟ ... ذلك أن أتشفّع اليها بصديق لأسألها فى مسألة خيرية .

ولقد تفضلت السيدة الكريمة وأذنت لى فى التمثّل لها فى قصرها الفخم القائم بإزاء دار الآثار، أو القاعة بإزائه دار الآثار .

مَضَيْتِ الى الموعد ورأسى يَزْدَحِمُ بجلائل الأفكار عن هذه السيدة النبيلة
 المزدحِمِ تاريخُها بجلائل الأعمال . ولقد تار المصريون في صدر سنة ١٩١٩
 يطبِّون نصيبهم في الحياة، وأبَت كرائم السيدات أن يتخلَّقن في الخلدور فقفرن،
 في خفة الى الجهاد، وفي طليعتهن كانت السيدة هدى هانم شعراوى؛ ولقد يُسَيِّغُ
 الرجل الرجعى « مثلى » هنا لأننا كنا في جهاد . وهل خلا جهاد من أثر
 للسيدات عظيم؟ وهادتنا الانجليز وهادناهم، وسكت المدفع وتكلمت السياسة،
 وآبَت أكثر العقائل الى خدورهن تاركات ذاك للرجال؛ فذلك، في رأيي،
 من شأن الرجال وحدهم . وأبَت هدى هانم، في سرب من ربات المجال،
 إلا أن تجول في السياسة مجالا . ولعله عَزَّ على بنت سلطان باشا الذى مثل
 خديو مصر في البلاد يوم حاصر العربايون الخديو في الاسكندرية وكَفَّوه
 عن ولاية الحكم، والذى جَرَّدَ عليه بعض الثائرين السيف فلم يَدْتَمَتِعْ عن
 التشيُّث بما اعتقده منجاة للوطن؛ ولعله عَزَّ على زوجة على شعراوى باشا
 الذى كان ثالث ثلاثة خاضوا، في يوم الرُّوع، مدافع السلطة وأَسْتَمَّها،
 وراحوا يقولون لعميدها في شمم وقوة : إن مصر تريد حريتها لأنها لا تطيق
 حياة الرِّق، فاذا كنتم ترومون أن تتصلوا بها فاتكن صِلَةً الأَكْفَاء بالأَكْفَاء
 لا السادة بالعبيد - لعله عَزَّ على هذه السيدة التى خاضت المجد من كل أطرافه
 أن تسكن أو تباع مصر غاية مُناها من الحرية والاستقلال .

على أنها ما لبثت في ميدان السياسة أن فطنت الى أن لها مهمة أخرى
 لو حرَّرت لها مواهبها العظيمة . لكان ذلك أَرَدَّ على بنى وطنها، بل على

قضية هذا الوطن . ولقد اجتمع للسيدة هدى هانم ما لم يجتمع لكثيرات في هذه البلاد، اجتمع لها الحسب، والغنى، والذكاء، والنشاط، والغيرة الشديدة على النفع العام .

وشاء الله لهدى هانم ، أو على الصحيح ، شاء لحظ مصر أن تُقبل هذه السيدة بكل مواهبها على ما هو أخلق بها، فرأت أن المرأة المصرية مظلومة فحق أن تُصَف ، محرومة ، فحق أن تُعْطَى ، جاهلة ، فحق أن تُتَعَلَّم ، وأنفق ما شاء الله من مالها وجاها ومساعدتها حتى شرعت الحكومة قانونا لِسَن زواج البنات ، وحتى فُرضت من عنايتها نصيبا عظيما لتعليم البنات ، وما زالت السيدة تلح بمساعدتها على الحكومة في شأن المرأة ، وما زالت عناية الحكومة تُتسع لهذا الإلحاح الكريم .

أما من جهتها هي فقد راحت تعمل على تهذيب المرأة المصرية وتعليمها ورفع شأنها بكل ما دخل في إمكانها من الذرائع : فمن إنشاء مدرسة ، الى إقامة ملجأ ، الى تشييد مشغل ، الى نشر مجلة ، الى إلقاء المحاضرات العامة في شؤون التربية والتعليم .

ولم تقنع بكل ذلك فأقامت مصنعا للحزف تُحْيِي به صناعة وطنية قديمة من جهة ، وتُعَصِّم به من جهة أخرى طائفة كبيرة من الفتيان المتبطلين من التشرذم والاطراد في طرق الشر والإجرام . ويضيق العمل في داخل البلاد عن مساحة هممتها فتهاجر كل عام الى ديار الغرب لتُهَيِّف باسم مصر وتُعلِي من قدر المرأة المصرية هناك .

وأظن السيدة هدى هانم شعراوى أول سيدة مصرية مثلت بنات جنسها في بلاد الغرب ، فقد وقّدت على روما من بضع سنين واستظمت عُضوا في المؤتمر النسوى الذى عُقد هناك ، وألقت بين أهله خطابا نفيسا دلّ القوم على أنهم كانوا في عقيدتهم في السيدة المصرية جدّ مخطئين .

ووقّدت صيفَ هذا العام على باريس ودخلت عُضوا تنوب عن نساء مصر في المؤتمر النسوى الذى حضره رئيس الوزارة ووزير المعارف كلاهما . ومما يذكّر لها بالإعجاب أنها لاحظت أنه قد رُفعت في قاعة المؤتمر أعلامُ الدول التى ينتمى إليها الأعضاء جميعا ما خلا مصر ، فلم تتوان عن الجهر بما لاحظت ، فاعتذر إليها القائمون بشأن المؤتمر وأكدوا لها جُهدَ قواهم أن الأمر لا يمكن أن يُصرَف إلا على مجرد السهو ، وبادروا الى العلم المصرى فرفعوه بين التحية والتصفيق ، ولما انتُخب أعضاء لجنة المؤتمر التنفيذية كان بينهم ، ولا غر ، ممثلةُ نساء مصر هدى هانم شعراوى .

كل هذه الأفكار كانت تساورنى في طريقى الى قصر السيدة هدى هانم شعراوى ، إلا أننى ، كما أسلفت إليك ، في مسألة « النهضة النسوية » رجعت . وإذا كنت أخاف شيئا من وفادتى تلك ، فهو أن تُغيّر السيدة هدى هانم رأى في المرأة ، والمرأة المصرية على وجه الخصوص !

وأنت اذا جدّدت في التفكير انتهيت الى أن أكثر ما يستريح اليه الناس وما يختمون عليه قلوبهم في معاقِد آرائهم مدينٌ لهذا النوع من الأنانية في الإنسان ، وإن المرء ليؤمن بالرأى حتى ليقا تل في سبيله ويبدل مهجته من

دونه ، وما كان هذا رأى نتيجة منطق سليم ولا وليد تفكير صحيح . بل لقد يكون أثرا من آثار التقليد أو طول الاعتياد أو حكم الظرف الخاص أو غير ذلك من مختلف الأسباب . وإن الزمن ليعقد بين المرء ورأيه إلفاً ومودة ، وتلك العلة في نفورك من كل من يكشف لك عن مواقع الخطأ في رأيك ويحاول أن يُزججك عنه الى ما ربما كان الصواب . ولقد لمس المتنبي هذا المعنى في قوله :

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا * لِفَارَقْتُ شَيْبَى مُوجَعَ الْقَلْبِ بِأَيِّهَا !



وبلغت قصر السيدة الفخيم وقادنى الخادم الى غرفة صنعت على (الطراز العربى) وقد آفقت اليد الصنّاع في سقّفا وجدرانها ومحاريبها وأثاثها وُثريّاتها وصُورها وتمّ أوليها حتى خُلّ الى أنى إنما أعيش في القرن الرابع عشر لا العشرين . وجاء شاب من قرابة السيدة فدعانى وساربنى نخضنا بهوا عظيما هائلا يتحير الطرف في بديع أثاثه ورائعة تُحفّسه ، حتى أفضى بى الى غرفة مبسوطة الجنبات أثّنت بفراش من طراز لويس السادس عشر ، وزُينت جوانبها بفوآلى الطُرف ، كما زينت جدرها بأبدع ما جالت به أيدي المصوِّرين . والواقع أن عينك لا تقع ، أنى دارت ، إلا على مظهر من مظاهر الغنى ، إلا أن ذهرك سرعان ما يستغرقه شعورك بما في ذلك النظام من دقة ذوق وروعة جمال . وهناك استقبلتنى السيدة النبيلة مرحبة وأومأت الى كرسى كبير (فوتيل) بفلست وجلست .

ولست أعالج من وصف سيدة ما أعالج من وصف الرجال فى هذه «المرأة» ؛
 إلا أننى لا أكتُم القارئ أن هذه السيدة تُحيط بها هالة من جلال تحسّر النظر
 عن تصفّح ما فى معارف وجهها من قسامة وجمال ؛ وذلك البريق فى عينيها
 قل أن يقع على محدثها بل أنها لتشرّد به فى ناحية أخرى فى فتور طرف ،
 على أنك لو استطعت أن «تنشل» منه فى غفلة منها نظرة واحدة أقنعتك تمام
 الإقناع بأن نظرها إنما يتجاوز المحيط الذى أنما فيه بعيد ، والواقع أنها سيدة
 مفكرة ؛ والظاهر أنها لا تنقطع عن تفكير عميق . محتشمة الثوب ، محتشمة
 المجلس ، محتشمة القول ، محتشمة الابتسام .

وانتهى دور التحية ولم يبق لى بدّ من الكلام . فقلت لها : ياستى ، إنما جئت
 لأسألك فى بعض ما تُعانين من الأعمال ؛ فأجابتنى فى دهشة قد تتطوى على
 شىء من الإنكار :

- لقد أخبرونى ياسيدى أنك آتٍ لتسألنى فى مسألة خيرية !
- وهل ثمّ خير أبلغ وأجمع مما تعالجن ياسيدتى من وجوه الأعمال ؟
- تفضل فسل عما شئت .
- قبل كل شىء لا أكتمك أننى رجلٌ لا أقول بالسفور ولا أذهب
 مذهب السفورين ؛ بل إني أعترف بأكثر من هذا ! أعترف بأننى فى مسألة
 «النهضة النسوية» ما زلت رجعيًا :
- رجعى ! ولماذا؟ وما حجتك على هذا الخلاف لجماعة السفورين ؟
- لست أتكلّف لهذا حجة ، بل لعلّ رأى طبعتنى عليه البيئة بحكم
 نشأتى فى بيت محافظ .

وهنا ابتسمت السيدة النبيلة ودارت ببصرها دورة سريعة وقالت فى بطاء
يتداخله شىء من العَجَب : وأين نشأت أنا ؟ ! ... وكأنها بهذه الكلمة
الصغيرة تقول لى بأبلغ البیان : وهل نسيت أنى نشأت فى أكبر بيت
فى الصعيد له كلُّ تقاليد المأثورة ، وعاداته القاسية الموروثة ؟ فأجبتها من
قورى ، وهذا ياسيدتى مما يزيد فى العَجَب !

— ليس الأمر بذعا كما تظن ، فان أمة تريد أن تحيا وأن تأخذ مكانها
تحت الشمس إنما تعبّت بعقلها وكرامة تفكيرها اذا ظنّت أنها بالغة من
ذلك ونصفها أشلّ ! وكيف يرقى الرجال اذا لم يرقّ النساء ؟ وكيف ينتظم حال
بيت تديره امرأة جاهلة لا رأى لها فى الحياة ولا كرامة ولا خطر؟ وكيف
تريد للأمة رجالا صالحين أكفأ للحياة المحيطة القوية اذا كان يتولّاهم فى بدء
نشأتهم ويطبّع تفكيرهم أمهات جاهلات وضيعات التفكير ؟

— يلاحظ ياسيدتى أنه فى هذا الوقت الذى قويت فيه الدعوة الى
السفور خرجت كثيرات من السيدات عن آفاقهن سواء فى ملابسهن وفى غير
الملبس من مطالب الحياة ! . وترى هل هناك صلة بين الأمرين ؟

— إن دعوة السفور ما كانت يوما لتنتوى على هذا التبرّج وهذا السلوك
الذى تُكره وتُكره كلنا معك ، فاذا ظن ظان أن من السفور ما تفعل بعض
سيداتنا، مع كثير من الأسف ، من الابتذال فى مجالس الرجال والرقص ونحوه
فهو فى أشدّ الضلال . واذا كان بعض السيدات قد تطرّفن فى سلوكهن
فما كان ذلك إلا نتيجة «التطور» الاجتماعى ، ونحن اذا دعونا الى السفور وعملنا

يجهدنه على تحقيقه فانما نفعل ذلك لنكبح جماح هذا «التطور» ونسير بالمرأة الشرقية فى الطريق النافع المأمون .

— وإنك ياسيدتى أنتجاهدين كثيرا فى أعمال البر، فهل لك أن تُصورى لى شعورك كلما أدركت من عملك نجاحا ؟ .

— إننى إذا كان قُدر لى فى مساعى نجاح كما تقول فان شعورى مشغولُ عنه بمعالجة ما لم يتهىأ بعدُ له النجاح . ثم قالت فى تواضع عظيم : إن خُطانا مازالت إبطاءً وخُطى الأيام سِراع !

— لعلك ياسيدتى لا تزنين تمام الوزن أثر المجهود العظيم الذى بذلته على الأيام لأن أقل الناس إدراكا لنمو الطفل هما أبواه .

— على كل حال فانه ما زال بيننا وبين الغاية التى نطلبها بون بعيد، فاذا لم نُدرِكها نحن رجونا أن يُدرِكها من بعدنا من الأجيال .



وهنا استأذنتها داعيا لها بالصحة وطول العمر، وانصرفت لا أدرى أبقيت على رأى «الرجعى» فى النساء أم لا ؟ إلا أننى رأيت لسانى يردد قول المتنبي :

ولو كان النساءُ كمن رأينا * لفضّلت النساءُ على الرجال



من ذخائر الأمم

اسماعيل صدق باشا

ما رأيت رجلا افترقت فيه أهواء الناس كما افترقت في اسماعيل باشا صدق :
فلقد أحبه قوم أشد الحب ، وأبغضه قوم أشد البغض ، وبقي فيه آخرون
متحيرى المذاهب مترجحي الآراء . وليس يشغل الناس بكل هذا إلا عظيم .
ولقد رزقه الله قصدا في كل ضواحي خلقه : فهو ليس بالطويل
ولا بالقصير ، ولا بالبدن ولا بالهزيل ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ،
له وجه لطيف مستدير ، وفم حلوة تفرق عليه ابتسامة حلوة ، يتحدث في هواة
وظرف حتى ل ترى فيه خف الكاعب وارتياح الغلام ، ولا تجده ، مهما لج بكما
الحديث وتعلق بما يحفز ويثير ، إلا وادع النفس مطمئن القول عذب الصوت ،
يقاويلك في الجلي كما يقاويلك في أتفه الشئون حتى لتحسبن هذا الهيكل الذي
يجتمع عليه نظرك لا يُجِنُّ إلا طاقات من الزهر ، أو قطعاً من نسيم السحر ،
فلا غضب ولا مراح ولا ضغن ولا وجد ولا غريزة من تلك الغرائز التي
تفجر في صدور جميع الأحياء ! ولكن ارفع بصرك الى عينيه تجد هناك
كل ما يصول به اللسان ، وتتزي به في الحادثات جوارح الانسان ! ...
واصدق باشا عيان حديدتان ، وهما مستديرتان في غير سعة ، وقد ركر الله
فيهما مظاهر كل ما في الرجل من ألوان العواطف ، فاذا استرسلت نفسك
منه الى مثل صفاء الغدير ، فاحذر فلعلك بين برائن ليث خادر ! .

ولِإِصْدَاقِ بَاشَا صَلْعَةٍ شَدِيدَةٍ الْوُضُوحِ تَحْدِيرِ إِلَى مُؤَخَّرِ نَافُوحِهِ حَتَّى لَتَعْرِفَنَّهُ بِهَا
مَوْلَانَا بِحُفْرَتِهِ مُتَقَبِلًا .

وَيَهَبُ اللَّهُ لَهُ دِقَّةً فِي الْحَسِّ وَصَفَاءً فِي الْمَذْهَبِ لَمْ يَهْبِهَا لَكثِيرٍ مِنَ النَّاسِ .
وَالِيَهُمَا يَرْجِعُ الْفَضْلُ أَعْظَمُهُ فِي كُلِّ مَا أَدْرَكَ مِنْ بَرَاعَةٍ وَتُبُوغٍ . وَلِإِصْدَاقِ بَاشَا
كُلِّ مُوَاعِبِ الرَّجُلِ الْفَنِّيِّ حَقًّا ؛ وَإِنَّهُ لَمْ يَعَالَجْ مِنْ يَوْمِ تَشَاثُّهِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ
مَوْضُوعًا فِي هَذَا الْبَابِ إِلَّا بَرَّعَ فِيهِ وَأَوْفَى عَلَى نَهَايَةِ الْإِحْسَانِ ، وَبِهَذِهِ الْمَوَاقِبِ
تَهَيَّأَ لِاسْمَاعِيلِ صَدَقِي أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ رَجُلٍ مَالِيٍّ فِي الْبِلَادِ ، لَا أُرِيدُ مُؤَلَفًا
وَلَا مُحَاضِرًا ، وَأَنْمَا أُرِيدُ رَجُلَ عَمَلٍ أَنْقَذَ بِمَهَارَتِهِ مِيزَانِيَةَ الدَّوْلَةِ مَرَّةً وَكَانَ
قَدْ أَشْرَفَ بِهَا سَلْفُهُ عَلَى الدَّمَارِ . وَمَا يَزَالُ يَعَالَجُ بِتِلْكَ الْعَبْقَرِيَّةِ الْفَدَّةَ مِيزَانِيَةَ
الدَّوْلَةِ وَزِيرًا وَعُضْوًا فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ .

وَقَدْ تَطَلَّعْتُ الْآمَالَ مِنْ بَضْعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ إِلَى وَضْعِ مَشْرُوعِ جَامِعِ اتَّرَقِيَّةِ
شَأْنِ الْبِلَادِ مِنَ الْوَجْهَتَيْنِ : الْمَالِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ ، وَعُهِدَ بِهَذَا إِلَى (لَجْنَةٍ) مِنْ أَهْلِ
الْخَطَرِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ مَصْرِيِّينَ وَأَجَانِبَ ؛ وَتَوَلَّى صَدَقِي بَاشَا رِيَاسَتَهَا فَبَحِثَ
فِي كُلِّ مُرَافِقِ الْبِلَادِ لَمْ يَدْعُ دَقِيقَةً وَلَا جَلِيلَةً فِي ذَلِكَ إِلَّا حَرَّرَهَا وَدَلَّ عَلَى
مَوَاضِعِ النِّقْصِ فِيهَا ، وَكَيْفَ تُطْلَبُ أَسْبَابُ الْكَمَالِ لَهَا ؛ وَخَرَجَ بِمَشْرُوعِ
عَظِيمٍ لَوْ أَنَّ مِصْرَ وَفَّقَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِهِ وَالسَّيْرِ بِمُرافَقَتِهَا عَلَى مَا رُسِمَ فِيهِ لَكَانَ
لثَرَوَتِهَا الْمُسْكِنَةِ الْيَوْمَ شَأْنٌ آخَرُ !

وَهُوَ مِنْ أَعْلَى الْمُثَلِّ لِلِكَيْفَايَاتِ الْوَاسِعَةِ الْمَشْبُوبَةِ الَّتِي لَا تَتَحَرَّجُ بِمُطَلَبٍ
وَلَا تَتَخَذَلُ عَنْ الْغَايَةِ ؛ وَأَتَى شَارَكَ فِي عَمَلٍ كَانَ الْمُجَلَّى وَكَانَ أَوَّلُ نَظَرِهِ جَمَاعَ الرَّأْيِ

فى النهاية . ومما يؤثّر له أن المجلس الاقتصادى — ولا تنس أنه من بعض آثاره فى وزارة المالية — انتخبه رئيسا للجنة الفرعية التى عهد اليها وضع النظام الجمركى ، فأعد برنامجا بديما اتخذته اللجنة دستورا لها وما زالت ترسم آثاره إلى الآن .

ومما يُحصى له ، إن كانت تُحصى مفاتح آثاره ، تلك المحاضرة الرائعة التى ألقاها فى العام الماضى على محامى المحكمة المختلطة فى موضوع الامتيازات الأجنبية وعلاقتها بالضرائب . وما كان أعظم انتصاره إذ يضرب تلك الامتيازات فى أمنع قلاعها ، ثم يتدلى عن المنبرين تهليل صفوة «الأجانب» وهتافهم الطويل !



وأحرز صدق باشا إجازة الحقوق من مدرسة الحقوق المصرية وسنه لم تتشرف بعد على الثامنة عشرة ، وخرج الى مراكز النيابة فلم يظهر له فيها كبير خطر ، وأى خطر كبير يمكن أن يتهيا لعضو نيابة محدود السعى محدود العمل ؟ ولكنه ما كاد يؤلى سكرتيرية المجلس البلدى فى الاسكندرية حتى ظهر نبوغه وظهرت معه تلك المرأة النادرة . ويقض رجل مصرى لأول مرة على ناصية المجلس البلدى فيضبط إدارته ويعمل على أن يطهره من أدرانته تطهيرا . ثم حى به سكرتيرا داما لوزارة الداخلية فوكلا لها ، فكان له شأن أكبر من شأن « موظف » مصرى فى ذلك الزمان . وأتى صار صدق باشا فى مناصبه صارت معه الدقة والفطنة الى خفايا الأمور والاضطلاع من مهام الحكم بكل عظيم .

وتولّى الوزارة فلم يُطل به الحظّ فيها فاعتزلها وليث في داره بضع سنين ، الى أن أُلّف الوفد في أعقاب سنة ١٩١٨ ليتحدّث على قضية مصر فانتظم فيه صدقي باشا ، وكان رابع أربعة من رجاله امتدّت اليهم يد السلطة العسكرية فنفتهم عن البلاد الى جزيرة مالطة ، حتى اذا أُطلقوا بعد تلك الأحداث الجليّة ، انطلقوا من فورهم الى باريس حيث وافاهم سائر أعضاء الوفد ، وهناك جعلوا يرفعون صوت مصر ويطلقون بطايتها كل باب ، ويسعون الى استئلاها ما وجدوا الى السعي سبيلا . واذا كانوا رفعوا صوت مصر فلقد رفعوا كذلك رأس مصر ، واذا كانوا دقّوا في إثبات حقّها صحائف خالدة على التاريخ ، فان اسم اسماعيل صدقي سيظلّ في أجلّ هذه الصحائف خالدا على التاريخ .

وفشت ، مع الاسف ، فاشية اتقبض على أثرها صدقي باشا عن العمل ، وصدر أدراجّه الى مصر ، وبقي في عُزّاته حتى كانت الوزارة العدلية في أوائل سنة ١٩٢١ فتقلّد فيها وزارة المالية ، وشخص في الوفد الرسمي الى لندن في تلك السنة . واذا كان قد شارك في بحث المسألة السياسية فقد انفرّد ببحث المسائل الاقتصادية التي تعلّقت بها المفاوضات ، فكان فيما حرره منها حقّ ليق وحقّ خير .

وتعلّم أن ثروت باشا قد استخرج في سنة ١٩٢٢ تصريح ٢٨ فبراير وإعلان مصر دولةً مستقلة ذات سيادة ، فلا تنس أن صاحبه صدقي باشا كان وزّره في هذا السعى وعونه بما جلى من التفاصيل . وما أبدع صدقي يكمل ثروت اذا عرّضت عظيمات الأمور ، هذا لخطيب السياسة الضخم ، وذاك لمايتكى عليه حلّ العضلات من دقائق الموضوعات .

فكيف يهذين مع عدلى بعينه العالية ونظرة السياسى القدير ؟ وكيف بثلاثتهم مع الزعيم الجليل سعد باشا وما اختصه الله به من شدة نفس وقوة حجة وصلابة عود ؟ .

ولقد حق للأمم الناهضة بهذا أن تغبط مصر ؛ وإن مصر بركة هذا الائتلاف المقدس لبالغة غرضها الأسمى إن شاء الله .

وبعد فلقد لبثت مصرُ بضع سنين وعيشتها السياسى قائم على تنابد قادتها وتناحر أحزابها ، كلُّ يعمل للقضاء على غيره حتى إذا خلا له وجهُ الأمر تولى حلَّ قضية البلاد على ما قدره هو لتحقيق أمانى البلاد . ويستحز القتال ويرمى كلُّ عدوه بما ملكت يده من أسباب الهلاك . ويأبى حارس الكنانة إلا أن يبصر الصفوة من القادة وأعيان أهل الرأي بأنه إذا كان هناك من يستفيد بهذه السياسة الدامية فليست هى مصر على أى حال !

وما إن أَهَابَ بالقوم ذلك الداعى النصيح حتى أُلْقِيَ السلاح وَنُضِيَّتْ الدروع ، وَخَشَعَتِ القلوب وفاضت العيون بالدموع ، ومَشَى الأخُ الى أخيه يستعنيه فيُعْتَبِ ، وهُرِعَ الولد الى أبيه يستعطفه فيعطف ويحْدِبُ ؛ وتُبْزَلُ الأضغان وتُسَلُّ الأحقاد ، فيجتمع الأحابُ من كل ناد ، فلا ترى الا عطفاً إلى الأفئدة ورحمة تسيل بها الأكباد .

شـواجر أرماع تقصّف بينها شـواجر أرحامٍ ملومٍ قطيعها

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

وكذلك أصبحت البلاد بنعمة الله صفا واحدا يرمى فى غرض واحد بعد أن كانت صغوفاً يرمى بعضها بعضاً . وصدق باشا رجل شديداً فى رأيه يعمل

له بكل ما أوتى من قوة ، وهو من أكبر العاملين على ترك سياسة الفُوقة الى سياسة الوثام ، وصلَّ الله في عمرها الى غاية الزمان ، فكان شديداً في الأولى كما كان شديداً في الثانية ، ومن يُنكر عليه هذا فهو لا يدين بمنافع البلاد حيث كانت ، ولكن يدين بعبادة الأشخاص حيث تكون ! .

وهل كان هذا في شرع السياسة يدعا ؟ وهذه دول الغرب التي نأخذ عنها أساليب الحكم وتروى وجوه التصرف في السياسة ، لقد تتعادى أحزابها وتتنافى ، وينضج بعضها بعضا بالمكروه ، حتى اذا حدثت الأحداث تصالحت الأيدي ، واتحدت الكلمة وتلاحمت الصفوف ، ودخل رجالٌ من بعضها في وزارة يُنمى رئيسها لآخرين ، والأمثلة على هذا أوفر من أن يتناولها البيان .

وافقد كان سعد وعدلى وثروت وصدق من بغير النهضة حزبا واحدا يدينون برأى واحد ، ويسعون لغرض واحد ، فهل يُعد عليهم اليوم أن تتحسر الفتنة بينهم وأن يعودوا كما بدءوا قلبا واحدا ، وقد جددت الأحداث ، لإنقاذ حياة البلاد ؟ !!!



ولعل صدق باشا يمتاز عن أصحابه بشدة العصبية لأهله ومعشره فلا يفتأ بتفقدتهم ويتوافتى لهم ويصلهم بكل ما دخل في ذرعه ، ولقد يُفرط في هذا الى الحد الذي يبعث ضعاف الأحلام ، على إنكار ما أوصت به المكارم من صلة الأرحام !

وصدق باشا ، في بابه ، عُدَّة قوية للبلاد ، وهو لا يكلل من العمل ، على فرط ذكائه ، ولا يمل . ومما تحدث به عنه أعرف الناس به أنه حين كان

وزيرا للمالية لم يكن يُرهق بكار موظفيها بطول المراجعة والاستخبار، بل كان يتكى على فطنته واختباره وحدهما في مذاكرة ما يدفعونه اليه من الأوراق .
ومما تحدثوا به عنه في هذا الباب أيضا أنه كان في غاية اليوم تُحمل الى داره خرائط ثلاث أو أربع تُجن كل ما يجرى من الأعمال في وزارة المالية ، فيكتب على دراستها من الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي فلا تدخل الساعة التاسعة الا وقد قتلها بحثا ومراجعة واستوى له في كل منها الرأى النصيح .
وإنَّ خِطْطًا عظيمًا ألا يُستخدم على الدوام للنفع العام ، فاذا أخذه شائته
يهنة فما كان هذا ليتنقّص أقدار الرجال ، الا اذا تنقّصت الكهوف أقدار
الجبال ، ولعلمهم في هذا أيضا كانوا مسيرين !

من صدقي باشا الى محرر المرأة

وقد تفضل حضرة صاحب المعالي اسماعيل صدقي باشا فبعث الى محرر
« المرأة » بالكتاب الآتي :

عزيزى الاستاذ الفاضل

أشكر فضيلتكم كثيرا لمرأتكم الناصعة وإن كنت لا أخفى عنكم أنني لم أتعرف
صورتى تماما خلا لها ؛ بل أخشى أن تكونوا قد بالغتم في تجليها وتزيينها .

وأرجو قبول تحياتى

المخلص

اسماعيل صدقي

١٧ يناير سنة ٩٢٧

(محرر المرأة) وليس لى يامولائى ما أقوله في هذا المقام غير قول الشاعر :

فلو (صوّرتُ) نفسك لم (أزدها) * على ما فيك من شرف الطّباع



بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّكَ * تُخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرِ عَوَاقِبُهُ

على الشمسى باشا

لم يكن على الشمسى من يوم نشأته منكور المحل ، وأول عهد الجمهور به يوم كان فى سويسرا يطلب العلوم العالية ، فكان طالبا مجتهدا متفوقا ، وكان الى جانب ذلك حركة وطنية قوية تدعو لمصر المضطهدة وتطالب لها الحرية فى صميم بلاد الحرية . نعم كان الشمسى فى أوروبا أقوى صدى لصوت الحزب الوطنى فى مصر . وأتمّ تحصيل علومه ونال علما الشهادات من أكبر جامعات سويسرا ، وعاد الى بلاده فظن الناس أن «وظيفة» تُمهّد فى الحكومة لهذا القادم الناجح الجسديد ، فاذا به يعدل الى دار الحزب الوطنى يستظم من قوّره عضوا فى مجلس إدارته . وهكذا كان الشمسى درسا بليغا فى التضحية خالصة لوجه الوطن ، من حيث علم من لم يكن يعلم أن التلميذ يتعلم فى مدارس مصر حتى اذا تآقت نفسه الى طلب العلم العالى هاجر الى بلاد الغرب فلبث سنين طويلا بعيدا عن أهله وأحبّ الناس الى قلبه ، وأنفق ما شاء الله أن يُنفق من مال وعمره ، وأدركه ما شاء طلب العلم من كد ذهن وإرهاق عصب ، حتى اذا برّع وحاز أسمى الألقاب العلمية ، عاد الى بلاده لا يطلب بهذا كله عند الحكومة مُرتقا ، ولكن ليطلب به «وظيفة» جُندى مجاهد فى سبيل الوطن !

وكان على الشمسى فى الحزب الوطنى قوة كبيرة لا فى جَهارة الصوت ، ولا فى كثرة الترائى للجهير ، ولا فى سبب من أسباب الظهور ، ولكن فى صحة

الرأى وبعْد النظر وسلامة التدبير . حتى اذا بعثته ضرورة الحال للخطابة أسمع الناس كلامَ وطنى شديد الوطنية فى عبارات سياسى محصه العلم ومرسته تجارب الأيام .

وهنا يحلولى أن أقتر ملاحظة صغيرة : تلك أنه لم يكْد يخرج رجلٌ فىنا الى ميدان السياسة إلا جاز اليه بالحزب الوطنى والتشييع بادی الرأى لمبادئه . والوجهُ فى هذا ، على تقديرى ، أن الحزب الوطنى حزبُ الشباب حقًا ، وأن مبادئه مبادئُ الشباب حقًا .

والشبابُ كله حدٌ وقوة : دمٌ فائر ، وطبعٌ نائر ، وخيالٌ طائر ، وأملٌ لا يتحسب للصعاب ، ولا يتخذل عن الاستشراف للغاية مهما عثر الطلاب :^(٢) اذا هم ألقى بين عيذه عزمه * ونكّب عن ذكر العواقب جانبًا !

وكلما علت السن عدا العقل على الخيال ، وقصّت التجارب من حوافى الآمال ، وطال النظر وكثر الحساب ، وتحير الرأى فيما على طريق الغاية من عوائير وما فيها من عقاب - الى ما تُثلم السن من القوة ، وتُقلّم من أظفار الفتوة ، وتُعجز من تلحقه عن التطلع الى الطفرة ، وتطمأن من جماح أمله طلبًا للسلامة من العثرة . فاحكم أنت بعد هذا : أكانت فترةُ الشيوخ عن صحة تدبير وصدق حساب ، أم عن تراخٍ فى المنة وعجز عن الوثاب ؟ !

وجاء الانتخابُ « للجمعية التشريعية » فظفر على بك الشمسى بالعضوية فيها عن مديرية الشرقية ، ولا أدرى أكان ظفّره بذلك ، على شدة التنافس

(١) الحد : الحدة . (٢) الطلاب : الطالب . (٣) العقاب هنا : جمع عقبة .

وقسوة الخصومة السياسية ، لإدراك النخبين صدقَ وطنيته وماله من
المواهب السامية ، أم لإنهم إنما أخرجوه للنيابة عنهم لحسبه وأصالة عرقه
وموضع يده في تلك البلاد ؟

على أنه ما كاد يتبوأ كرسية في « الجمعية التشريعية » ، وكان أصغر
أعضائها سناً ، حتى انفسح له بين رجالاتها في مكان الرأي والحكمة
مكان خطير !

ودارت رَحَى الحرب العظمى ، وظهرت السلطة القوية أن على الشمسى
(من غير المرغوب فيهم) فكفوه عن العودة الى بلاده ، ولبث في ديار الغرب
منفياً طوال زمن الحرب ، فاغتنم هو هذا التفتى ليدعوا فيه لمصر وليستزيد من
فَضْل الوقت لطلب العلم في أعظم جامعات الغرب .

وأراد الله وأُعْمِد السَّيْفُ ، وهتف هاتف السلام ، وأُذِن (للمغضوب
عليهم) في العودة الى بلادهم ، فعاد على الشمسى لا يستريح من ذلك النصب
الطويل ، ولكن ليستقبل في قضية بلاده ذلك الجهاد الطويل .

وشخص الوفد المصرى الى أوربا فسرعان ما اتصل به على الشمسى ،
وظل يمدّه بجهوده ويصّله بصادق الدعوة في مواطن الدعوة ، ثم انتظم
فيه عضواً .

وبعد ، فأنت أخبر بمساعيه للوفد المصرى وبخاصة في بلاد الغرب ،
مما أجدى عليه بقوة ذكائه وعظيم اختباره ووثيق صلاته برجال السياسة
هناك اعظم الجدوى .



ولقد حدثتُك في أول هذا المقال أن على الشمسى لم يكن من يوم نشأته منكور المحلّ ، وإنما أردت بهذا علم الناس بنشأته في المجد والحسب ، وتقهم بماله من شدة فطنة وواسع علم ، وإيمانهم بما أدرك من اختبار وتمرين في السياسة وصدق جهاد في الوطن ، أما أنه يصلح لأن يكون وزيرا ، وفي وزارة المعارف ، يضطلع بتلك الإدارة الواسعة ويعالج أضخم مشكلة تعترض حياة البلاد ، وهي مشكلة التعليم ، فذلك ما كان محلّ نظر كبير ؛ إن لم أقل إنه كان موضع خوف كبير ! حتى لقد سلم كثير من الناس الأمر لله في هذا وللزعماء تسليما ! وحتى قال بعض الصادقين الخالصين حين رأوا إجماع الزعماء على تقليد على بك الشمسى وزارة المعارف «اللهم إيماننا كإيمان العجائز» !!!

وأقول ما ظنّ به أنه سينبعث بهوى السياسة وحدها في عمله الجديد ، فلا يرى أثرا إلا عفاؤه ، ولا بناء إلا هدمه ، ولا عملا لأسلافه إلا نقضه ؛ ولكن على الشمسى لم يكن عند رأى أحد من أولئك المتعجلين جميعا ! فقد ارتفع به علمه عن أن يغير في نُظم التعليم لمجرد الشهوة في التغيير ، وارتفعت به وطنيته عن أن يفضب العلم ليرضى السياسة ؛ وحين فارت فورة بعض أعضاء مجلس النواب على ما صنع سلفه أبت على الشمسى كرامته وكرامة العلم عليه أن يشايح بظهور الغيب ؛ بل لقد صارح القوم بأنه لا يستطيع أن يحكم على عمل سلفه إلا بعد أن يُراجعَه ويُصَيَّب فيه مكان الرأى ، فما كان منه خيرا أثبتَه وأقرّه ، وما كان شرا ردّه الى الخير ؛ وأسرع لساعته فدعا بالأفذاذ

من أقطاب العلماء وأهل البَصْرِ في هذا الموضوع ، وألّف منهم (الجنة) برياسته
لمراجعة أظمّ التعليم بجميع درجاته ووضع الخطّة الحكيمة التي تُحقّق في العلم
أمانىّ البلاد، وهامىّ تى تعمل جاهدة في هذه السبيل فلا تنتقل من خطوة
الى خطوة إلا بعد البحث وتقليب النّظر وطول المراجعة ، حتى لا تُرسل
خطوتها إلا الى الثابت المطمئن ، مستهدية بالحكمة والاختبار وحاجة البلاد
وطبيعة أهلها وما انتهى اليه رأى علماء التربية في نُظم التعليم . وإنا نرجو
الله تعالى أن يوفّق هذه (الجنة) في مهمتها حتى تبلغ غايتها ، وبهذا
ندعو لعلّ باشا الشمسي بتسجيل أبلغ نحر أثبتّه التاريخ لوزير المعارف
في مصر .



وعلى باشا الشمسي رجلٌ جمّ الأدب وافر التهذيب : يُروى عنه أنه
لا يلقى أصغر عمّاله إلا باللطف والمهشاشة ، على أنه مع هذا شديد الحزم
لا تأخذه هَوادة في موطن الحق . يغار على عمله غيرته على أوثق أسبابه ،
فلا يدع صغيرة ولا كبيرة من أعمال وزارته إلا سلّط عليها ذكاءه وقلّبا على
كل نواحى الرأى ، فان اجتمع فيها وجه المصاحبة الخالصة أمضاها وأجازها ،
وإلا فلا تمّ هوى النفس وهوى « الرجاء » الشّكل .

وليت حكمانا جميعاً يصلّبون على تقبّل الشفاعات في غير مواطن الحق ،
فان الإفراط في الرجاء أصبح من أعضل أدوائنا الاجتماعية .

واذا كان الحاكم عدلاً صادقاً الولاية على عمله فليس هناك معنى (للرجاء)
عنده إلا أن يُراد به العدول الى الظلم وتعمّد الخلاف للقانون ! أرايت مثل

هذا إسفافاً في الطباع وفُسولةً في الأخلاق ؟ ! ... والعجب أنه مع وضوح هذا كله لجماعة المضطربين بفنون الشفاعات عند الحكام فإن أكثرهم يُطْلَقُونَ ألسنتهم بمقالة السوء فيمن يعصم بالحق ولا يخرف ، طوعاً لشفاعتهم ، عن حكم القانون . وبهذا أصبح لا يستحق الحمد ، في شرع هؤلاء ، إلا ظالمٌ متتد على النظام ! .

وقال لى صديق من القضاة يوماً وهو جَزَعُ ثائر النفس : لا يغيظنى يا فلان قدر أن يحيثنى الشفيع فى احدى القضايا فلا يفتح عليه الاجرام إلا بأن يرجونى "أن أقضى فيها بالعدل" ! ومعنى هذا أنى لا أحكم فى أقضية سائر الناس إلا بالظلم ! ولو سألتنى أن أقضى فى شأن صاحبه بالظلم لكان ذلك أرفق بى وأدّل على أنى اذا أرسلت على طبعى لما عدوتُ مكان الحق ! ... أقول ، لو صلب الحكام جميعاً على تقبل الرجا لما استكفوا الأذى فقط بل لطبعوا ، على الأيام ، كثرة الناس على حب الحق واجلال القانون ، وما أحوج بلادنا فى نهضتها الكريمة الى أن يتغلغل فى القلوب حب الحق واجلال القانون .

ونعود الى على باشا الشمسى فنقول إنه أظهر فى هذه الفترة التى قبض فيها على زمام وزارة المعارف كل مواهب الوزير العظيم القوى الذهن ، النافذ رأى ، الواثق بالنفس ، والذى لا يجعل كلمته فى أسباب الحكم رهناً بمنصبه ، بل يجعل منصبه رهناً بكلمته .

وليس لتعليم على الشمسى فضلٌ كبير فى الحرص على كلمته ؛ بل إن أعظم الفضل فى ذلك لحكم الوراثة ، فقد قال أبوه أمين باشا الشمسى أغنى

تجار القطن من قبل كلمة ؛ وكان له أن يتحلل منها فلم يفعل ، وخسر فيها
مئات آلاف الجنيهات . وهكذا اذا كان فى نبل الكلمة خسارة فى المنصب
أو المال ، فهى كل الربح يُحصيه التاريخ لعظماء الرجال .



وعلى باشا الشمسى شاب متين الجسم مفتول العضل ، أدنى الى القصر
منه الى الطول ، أبيض اللون ، أزرق العينين ؛ تسترعى نظرك منه تلك الجبهة
الواضحة العريضة التى تمثل لك قاعدة مثلث ينتهى بأسفل ذقنه ، وما إن راقك
منه أدبه وشدة وداعته فاطلمت منه على تلك الجبهة الهائلة إلا أحسست
أنه رجل خالق لا يكفاح والنضال .

وحدثتُك أنه مفتول العضل ؛ ذلك بأنه (Sport) حقا فهو يُجيد
السباحة وركوب الخيل والملاعبة (بالشيش) ولا ينطوى عليه يوم إلا قرص
منه قسما للألعاب الرياضية .

وإذا كان فى المصريين قوم قد أسفوا أوّل الأمر على تقليد على الشمسى
وزارة المعارف فان هؤلاء اليوم أشدّ الناس أسفا على أن الوزارة قد حرمت
هذه العبقرية من زمان طويل .



الحمد لله ! لم يبقَ إلا مائة ألف جنيه و ٥٠٠٠ سهم بنك عقارى قديم
حتى أقطع الى عبادة الله والزهد فى الدنيا ! ...

الشيخ أبو الفضل الحيزاوى

أَلَا مَنْ شَاءَ أَنْ يَقْدُرَ مَبْلَغَ التَّطَوُّرِ الَّذِى دَخَلَ عَلَى رِجَالِ الدِّينِ عِنْدَنَا
وَيَعْرِفَ مَدَى الطَّفَرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِى طَفَرُوهَا فِي سَبِيلِ الْحَضَارَةِ (وَالرَّقَى) !
فَلْيَسْمَعْ الْقِصَّةَ الْآتِيَةَ :

حَدَّثَنِى الثَّقَّةُ الصَّادِقُ أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَزْهَرِ مِنْ سِتِينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً عَالِمٌ
جَلِيلُ الْمَقْدَارِ يَدْعَى الشَّيْخَ الْإِسْمَاعِيلِيَّ، وَكَانَ يَسْكُنُ جَامِعَ الْمُؤَيَّدِ، وَلَهُ تَلْمِيزٌ
خَاصٌّ، عَلَى عَادَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، يَقْرَأُ بَيْنَ يَدَيْهِ دَرَسَهُ إِذَا أَقْبَلَ
عَلَى حَاقِقَتِهِ، وَيَتْلُوهُ عَلَيْهِ إِذَا خَلَا لِمَذَاكَرَتِهِ، وَيُعِينُهُ إِذَا سَعَى، وَيَصُبُّ لَهُ مَاءَ
وَضُوءَهُ، وَيَحْمِلُ نَعْلَهُ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْخ. وَهَذَا التَّلْمِيزُ كَانَ يَدْعَى
الشَّيْخَ حَسَنًا

وَكَانَ الشَّيْخُ الْإِسْمَاعِيلِيَّ رَجُلًا شَدِيدَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا قَوِيَّ الرِّغْبَةِ عَنْهَا،
لَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِسَبَبٍ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ دِينِهِ وَتَعْلِيمِ طَلَبَتِهِ، وَكَانَتْ وَظِيفَتُهُ
كُلَّ يَوْمٍ بَضْعَةَ رُغْفَانٍ يَتَبَلَّغُ بِهَا وَتَلْمِيزُهُ، وَفِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثِينَ قَرَشًا يَأْتِدِمُ بِهَا
وَصَاحِبُهُ، وَيَتَجَمَّلُ بِمَا فَضَّلَ مِنْهَا لِسَائِرِ حَاجَاتِهِمَا. وَيَدْعُو أَحَدَ التَّجَارِ ذَلِكَ
الشَّيْخَ لِيَتَغَدَّى عِنْدَهُ آتِمًا سَابِقًا لِبُرْكَتِهِ فَيَأْبَى الشَّيْخُ وَيَعْتَذِرُ، وَيُلِحُّ الرَّجُلُ فِي الدَّعْوَةِ
فَيُلِحُّ الشَّيْخُ فِي إِبَائِهِ وَاعْتِذَارِهِ. فَلَمَّا أَيْسَرَ الرَّجُلُ مِنْ إِسْلَاسِ الشَّيْخِ طَلَبَ
وَجْهَ الْحِيلَةِ فِي الْأَمْرِ فَاخْتَلَى بِالشَّيْخِ حَسَنًا وَقَالَ لَهُ : إِذَا رُضِّتَ لِي نَفْسَ الشَّيْخِ

وقدته الى دارى لِيُفِطِرَ عندى فى رمضانَ ، وقد أصبحوا من رمضان على أيام ،
اجْتَمَعْتُ لك على هذا نَحْيَيْنِ من السمن ، وغِرَارَتَيْنِ من القمح ، وأربعةَ
أعدال من السكر والصابون والشمع والبن . بجمَعَ الشيخ حَسَنٌ كُلَّ عِزْمِهِ
وانصَبَ على شيخه يقبَلُ يديه ورجليه ويسأله ألا يَنْحَيِّبَ رجاء داعيه ، اذ الشيخ
ما يزال فى نفوره وإبائه ، والشيخ يلُحُّ فى الاعتذار محتجاً بأنه ما زال
فى (حِزَانَتِهِ) خَبْرُ كَثِيرٍ . ولما طال إلحاح التلميذ فَطَنَ الأستاذ الى أن فى الأمر
شيئاً فقال له : دل اجْتَمِعْ لك الرجل على هذا جُعلاً ؟ فقال : بلى يا مولاي !
لقد جعل لى كَيْتَ وكَيْتَ وأنا رجل ، كما تعلم ، ذو زوجة وأولاد ، وإنى أرجو
أن أعود بهذا على شَمْلَى وأوسَع فى النفقة دهرًا على عيالى ، وحينئذ طابَتْ نَفْسُ
الشيخ الأكبر باجابة الدعوة رحمةً بِعِيَالِ الشيخ الأصغر ، وعين يوماً من أيام
رمضان لِيُفِطِرَ فيه عند ذلك التاجر . ويطير عَمَ الشيخ حسن اليه يشره بقبول
الشيخ . ويحتفل الرجل للأمر فيدعو بأجود الطُهَاءِ ويتقدّم اليهم بِطُحْوى
أزكى الأطعمة ، كما يدعو لليوم المعين أعيان التجار والسَّراة وكل ذى خطر
فى الحى لِيَنْعَمُوا بطلعة الشيخ ويتشرفوا بِمَوْا كلته . حتى اذا كان عصرُ ذلك
اليوم لاحظ الشيخ حسن على أستاذة فتورا وإغضاء وترَبُّد وجهه وانقباضاً عن
الحديث ، حتى اذا تهيأت الشمس للنزول قال لصاحبه : هلم بنا . وانطلقا يَطْلُبَانِ
حىَّ الجمالية ، مَثْوَى الداعى ، وما كادا يشرفان على حارته حتى أبصرا علامة
الزينة من بُنُود خافقة ، وثرىات آليقة ، ترتجف أثناء ذلك بطَاطِيخ الزجاج
فى ألوانها المختلفة ، ورأيا كبار الأعيان وهم ميمِّمون دار الداعى على أُنْتَهُم

وبراديرهم الفارِهِة . بِحَمْدِ الشَّيْخِ وَأَصْفَرَّ وَجْهَهُ وَتَهَدَّأتْ شَفَتُهُ وَأُرْعَشَتْ
يَدَاهُ وَصَاحَ فِي تَلْمِيذِهِ : كَمْ اجْتَعَلَ لَكَ الرَّجُلُ يَا شَيْخُ ؟ فَقَالَ : جَعَلَ لِي كَيْتَ
وَكَيْتَ ! قَالَ : فَكَمْ يَبْلُغُ ثَمَنُهَا ؟ قَالَ : يَا مَوْلَايَ حَوْلَ الْاِثْنَيْ عَشَرَ جَنِيْهَا ! قَالَ :
فَقَسَّطُهَا عَلَى كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثِينَ قَرَشًا ! ! ! وَدَارَ عَلَى مَحْوَرِهِ وَجَدَى طَلَقًا إِلَى مَشَاوَاهِ
فِي جَامِعِ الْمَوْيِدِ حَيْثُ يَبْسُطُ خِوَانَهُ مِمَّا آذَرَ مِنَ الْخَبْزِ فِي (خَزَانَتِهِ) ! ! !



وفينا اليومَ علماءٌ كِبَارٌ ، وَلَنَا الْيَوْمَ شَيْخٌ إِسْلَامٌ جَلِيلٌ الْمَقْدَارُ ، لَمْ يَمْنَعْهُمْ
عِلْمُهُمْ ، وَلَا دِينُهُمْ ، وَلَا شِدَّةُ وَرَعِهِمْ عَنْ أَنْ يَفْقَهُوا الدُّنْيَا وَيَجَارُوهَا
فِي مَظَاهِرِ حَضَارَتِهَا وَرَقِيهَا حَتَّى لَا يُطْلِقُوا فِيْنَا الْقَالَءَ وَلَا يَبْعَثُوا الْأَلْسُنَ
بِتَنْقِصِ الدِّينِ وَالْقَوْلِ بِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجُمُودِ وَمَنَاهِضَةِ عَوَامِلِ الرِّقَى وَالتَّقَدُّمِ
فِي الدُّنْيَا إِلَى حَدِّ أَنْ يُحْيُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ الْمُبَارَكَةِ فِي (دَارِ الْوَكَالَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ
فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمَاضِي ! ! !) وَلَوْ قَدْ رَأَيْتَهُمْ يَهْرُولُونَ فِي (فُرُوجِيَّاتِهِمْ) إِلَى دَارِ
الْوَكَالَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ إِجَابَةً لِدَعْوَةِ الْعَمِيدِ وَذَكَرْتُ مَرَجِعَ ذَلِكَ الشَّيْخِ الْجَامِدِ
وَهَرَبِهِ مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِ لَعْلِهِ قَدْ دَخَلَهُ مَا لَا يَحِلُّ — لَعَرَفَتْ حَقَّ الْعِرْفَانِ مَبْلَغَ
التَّقَدُّمِ الَّذِي بَلَغَهُ رَجَالُ الدِّينِ عِنْدَنَا فِي مَدَى سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ مِنَ الْأَعْوَامِ ! ! .

ولو قد اسْتَشْرَقَتْ لَكَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ فَكَشَفَتْ لَكَ عَنْ (خَزَانَةِ) الشَّيْخِ
أَبِي الْفَضْلِ الْحِيزَاوِيِّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ لَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُكَ فِيهَا عَلَى فَقَارِ مِنَ الْخَبْزِ ،
بَلْ لَوَقَعَتْ عَلَى الْآلَافِ مِنَ (الْبَنْكِ نَوْتِ) إِلَى أَمْثَالِهَا مِنْ أَصْهَمِ الدِّينِ الْمَوْحِدِ ،
وَشَرَكَةِ السُّكْرِ ، وَالرَّنْتِ الْفَرَنْسِي ، وَالْقَوْنَسُولِيدِ الْإِنْجِلِيزِيِّ ، وَقَنَاةِ بَنَامَا ،

(ويا نصيب) بلدية باريس، الى وثائق الرهون، والغاروقات، والامتيازات العقارية، والاختصاصات، وأحكام نزع الملكيات، وان شئت إجمالاً قلت إن (خزانة) شيخ إسلامنا، والحمد لله، لا تقل عن خزانة ثلاثة (بنوك) مجتمعات !!! .

وما لنا لا نغتبط بهذا ولا نباهي به وقد كانت كل (العمليات المالية) في أيدي الافرنج واليهود والأروام والأرمن، وها هي تى الآن تستخلصها من برائن أولئك الأقوام، أيدي سادتنا العلماء الأعلام .

*
*
*

والشيخ أبو الفضل الجيزاوي رجلٌ عصاميٌّ حقاً فقد خرج من بلدته الوراق من أعمال مركز انبابة الى الأزهر، وجدَّ في طلب العلم وكَدَح في ذلك كَدْحاً عنيفاً قام عنده مقام شدة الذكاء وقوة الاستعداد، وانتهى أمره، لا أدري بأية وسيلة، الى المرحوم الشيخ العباسي المهدي الذي كره له لقبه فدعاه (أبا الفضل) فذهب له هذا اللقب من ذلك اليوم . ولما استوى عالماً مدرساً كان المرحوم العباسي يعتمد عليه في بعض وسائل امتحان العالمية في الأزهر . ورأى الشيخ (أبو الفضل) أن (يعمل لندياه كأنه يعيش أبداً كما يعمل لآخرته كأنه يموت غداً) فخرَّص على جمع المال وجدَّ في تجميعه من أيسر الوسائل، وكم وامي به عانياً، وكم فرَّج به كربة محتاج؛ على أن الله تعالى، الذي لا يذهب العُرف بينه وبين الناس، قد أنعم عليه وجازاه فيما أعطى أضعافاً مضاعفة . وله في هذه المكارم أحاديث ماثورة، وصحف لا تزال مقروءة منشورة !!! .

وظلَّ الشيخ (المالي) مدرسا في الأزهر معروفاً بشدة الاجتهاد والمطاوَلَة في الدرس ، وقوة الصبر على التفهيم وتصيّد الشكوك ومدافعتها ، على عادة الأَكثَرين من علماء الأزهر في عهده ، فكان درسه من أحفل الدروس بطلبة هذا النوع من التعليم .

وهو رجل معروف بحبِّ القرآن وتلاوة القرآن ، فلم يتبَطَّر وهو عالم كبير ، ومالي شهير ، على أن يَلِيَ مَقْرَأَة السلطان الحنفى لقاء ريال في كل شهر ، وعشرين رغيفا في كل أسبوع ! .

ثم وَلِيَ مشيخة معهد الاسكندرية وظل فيها الى أن أفضت اليه مشيخة الاسلام في سنة ١٩١٦ أو ١٩١٧ م ، وبلغ من حب الرجل للقرآن واحتفاله للقرآن ألا يتنحى عن مَقْرَأَة السلطان الحنفى وهو في ذلك المنصب الجليل !!!
ويأبى الله إلا أن يَفْسَحَ له في الخير ويُسَـطِّـطَ له في الرزق ، فبعد أن كان مرتب شيخ الاسلام ستين جنيها في الشهر أضحي ألفي جنيه في العام ، وبعد أن كان ثلاثين رغيفا في اليوم أصبح ثلاثمائة ، الى ما أضيف الى ذلك من وظائف عدة تجرى على مولانا الشيخ الأكبر في كل شهر مكافأة على حضور مجلس ادارة مدرسة القضاء الشرعي ، وأخرى لمدرسة دار العلوم ، وثالثة على حضور مجلس الأوقاف الأعلى ، ورابعة لمجلس البلاط ، وخامسة وسادسة وسابعة وثامنة ، الى تلك الأوقاف الواسعة التي دخلت على مشيخة الأزهر والتي لا يعلم حسابها إلا الله تعالى . وما شاء الله كان !!! .

والشيخ أبو الفضل الجيزاوي متوسط القامة بين الطول والقصر ، قصير العنق ، عريض الأنواح ، متوافر اللحم لولا أن رَهَلَ لحمه بحكم التسمين ، أَخِيفَ

العينين ، خفيف شعر العارضين ، كَوَسَّجُ اللحية ، أَرَتْ اللسان ؛ اذا تحدّث تتم
فلا تكاد تَسْتَبِين له إلا بالعناء قولاً ، وقد أصبح من المرض وتزاحم السنين
أشبه بمومياء ، حتى لو قد آسَدَرَجَتْه يوما الى دار الآثار ما استطعت أن
تستخرجه منها إلا بعد جدال وجُهد في الإثبات !!! . . . وهو وإن تهتم
جسمه ، وإن تَحْمَدْ ذهنه ، ما يزال قَتِيَّ الرغبة في المنصب . وإن الحفلة الرسمية
تُعَقَّد ، وللشيخ كلُّ عذره في التخلُّف عنها لمعالجة ما هو أشبه بالموت ، ولكنه
يأبى إلا أن يُجَمَلَ الى الحفل حملاً إِدْحَاضاً لما يتقول على صحته المتقولون !!! !

وللشيخ مزيّة التي لا تُنكر ، فهو شديد الحرص على إطاعة كل ما يُؤمّره
من يَسْتَدْرِج الأمر منهم ، إذ الرجل واسع العلم بأحكام الفقه وما يتغيّر عليه
في كل حادث آراء الفقهاء ، فلا يُعجزه أن يُبرى ذمته في أىّ حادث يجواب ،
مهما اختلفت الال وتنوعت الأسباب .

ومن طَويِّف ما يُذكر لمولانا الشيخ في هذا الصدد ويدل على عظيم
تصرفه وحاضر حجته أن عالماً يُمُتُّ لنشأت باشا بالصهر ، وقد نال إجازة
التدريس من الأزهر على أنه شافعى المذهب ، وبعد سنين تقدّم الى الامتحان
في فقه أبى حنيفة أوّسلاً الى تقلّد منصب القضاء الشرعى ، فلما طُرح اسمه على
لجنة اختيار القضاة الشرعيين ، ولم يكن لنشأت باشا في ذلك اليوم شأن ولا خطر ،
عارض مولانا الأَكْبَرُ في تعيين ذلك الشيخ بحجة (أنه شافعى) ! . وتدور
الأيام وَيَقْبِضُ نشأت باشا على كل السلطة في الحكومة ، كما تعرف ، فَيَرِدُ
اسم الشيخ صهره على اللجنة ؛ ويتبارى بعض الشيوخ من أعضائها في تركيته

وتبين مزاياه ويؤمن على شهادتهم فيه مولانا الأستاذ الأكبر هاتفا بهم :
ولا تنسوا أنه مع كونه عابثا حنفيا فهو يُجيد (فقه الشافعى) أيضا

والشيخ ، على ما أفاء الله عليه من الثراء العريض والنعمة الواسعة ، ما زال
يَتَّخِذُ دارا متواضعة في زقاق ضيقٍ خِلافٍ مِيطَاطَةِ الحنفى ، على أنه طالما أتعب
سماسرة البلد في المساومة على ما يعرض للبيع من قصور الزمالك ، والجيزة ،
وقصر الدوبارة ، (وجاردن سى) فإذا جاءوه بالبيت وكان ثمنه عشرين ألفا طلبه
بالخمسة عشر ، وإذا كان بخمسة عشر صمَّم على العشرة ، وهكذا ما زال الشيخ
جاهدا نفسه وجاهدا معه سماسرة البلد من عشر سنين مضت ، فلا هو يشتري
ولا يَقْعُدُ عن التماس القصور ، على حدِّ قول الشاعر : (فلا أَمَلٌ ولا تُوفى
المواعيدا) ! وماله ولقصور الدنيا تلك التى تستفتح الخزائن وتستخرج الأموال
وتُجَسِّمُ النفقات ، وفى اللجنة قصور من الزمرد ومن اليواقيت ومما تقوم اللبنة
فيه من الفضة وأختها من الذهب وهى لا نفقة فيها ، فالطيبات كلها وألوان
التَّرفِ تجرى على أصحابها من غير كلفة ولا عناء . ولمولانا الشيخ منها ، بعد
العمر الطويل ، ما لا يُحصى جزاء الزهد فى الدنيا والرغبة عن قصورها ومتاعها
(وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ؟ .

نسأل الله جل وعلا أن يُمِطَّ فى عمر الشيخ أبى الفضل فى الدنيا وأن
يُسعد فى حاله ، ويزيد فى ماله ، فلا تقوم بجانبه البنوك ، ولا تجوز بغير توقيعه
الصُّكوك ، وأن ينحصه بكل ما تنجيئه الأوقاف والحوانيت والشركات
والمصارف ، من أول الاسكندرية الى أقصى القضايف . آمين .



لا يُغَرِّكَ سُهولةُ المَرْتَقَى إِذَا كَانَ المُنْحَدَرُ وَغَيرَا

عزيز عزت باشا

مظلومٌ من الطبيعة، ومظلومٌ من الحكومة، ومظلومٌ من الناس، ومظلومٌ من نفسه . شاع فيه المرض أو توهم المرض (أو ما تراه أعظمًا وجُلودًا ؟) فهو يخشى الطعام لئلا يدركه البَشَمُ ، ويخشى الشراب لئلا يُلَحَّ عليه السَّقمُ ، ويخشى المشى خوف تعب القلب وخفقانه ، والتلفت انتقاء وجع الجنب وضربانه ، والحديث فانه يُرهف العَصَبَ ، والكتابة فانها مَدعاة للكَدِّ والنَّصَبِ . ولا بد له من أن يَطمعَ ليعيش ؛ فاذا قَرَّبوا اليه الطعام دفع صحاف اللحم أبيضه وأحمره ؛ لأن أضراره لا تقوى على قَضْمِهِ ، ومعدته لا تضطلع بهضمه ، واذا جاءوه بالخضر صَدَفَ عن هذا ففيه حديد ، وهذا لكثرة ما يحوى من (الأسيد) ، وهذا لأنه وشيك النَحْجَرُ ، وهذا لأنه سريع التخمُّر ؛ وهذا لأنه يستحيل في الأمعاء غازا ، وهذا لأنه لا يجد في (الاثني عشرى) مجازا ؛ ثم مَدَّ يده في خوف ووَهْلٍ فَحَيِّفَ ^(١) من احدى الصِّحَافِ قطعة من (البطاطس) مسلوقة مدقوقة ، قد بالغوا في عَرَكِهَا ، وألحوا في فَرَكِهَا ، ولم يعالجوها بدهن ولا مرق ، حتى اذا أساغها بعد طول مضغ وهرس ، وترديد على كل نَبْذَةٍ وكل ضَرْسٍ ، مضى يطلب لهضمها من العقاقير كُلِّ ما أخرج أطباء الانجائيز والألمان ، والفرنسيين والأمريكان ، مما يُدِرُّ عَصِيرَ المَعِدَةِ ، ويحرك الأمعاء ، ويُسَدِّدُ

(١) الوهل : الضعف .

المُضْران ، ويقوى (الصفيرة الشمسية) ويمنع التخمير ، ويشتف الغازات ؛
ويختار (الحجاب الحاجز) فلا يضغط القلب ؛ ثم راح يشكو هؤلاء جميعا !!!
وعزیز باشا عزت كبير الرأس ، له وجه شاحب طويل على جسم رفيع
طويل ، لو وقف أمامك ولم يتحرك لخلته عصي خيزُرانة رُكب عليها مقبض
من العاج ! .

وقد نجّم من بيت حسب وغنى ، وتعلم في صدر شبابه في مدارس مصر ،
ثم شتّخص الى انجلترا فتلقى العلم في مدارسها ، ثم دخل في جامعة (ولش)
العسكرية حتى إذا طوى فيها سنين طالبا مُجْتَدا متفوقا خرج منها ضابطا في الجيش
البريطاني ، ثم استقال وعاد الى مصر فانتظم في خدمة الحكومة المصرية حتى
قُلِّد وكالة الخارجية ، الى أن كانت وزارة محمد باشا سعيد الأولى فلم ير أن يبقى
في وزارة الخارجية ويكلا فتزح بأهله الى لندن وأقام فيها كل هذه السنين .
وهو رجل وافر الذكاء ، غزير العلم ، جَمُّ الأدب ، صادق الثبُل ، وبهذه
السجايا استطاع أن يُحرز في بلاد الانجليز مكانا رفيعا .

ولما جاء دور اختيار السفراء قلّدتَه حكومة جلالة الملك فؤاد الأول
سفارة لندن ، وكان اختيارا موفقا من ناحية ما للرجل من سعة العلم وصدق
النبَل ووفرة الغنى والمنزلة في عطاء الانجليز ؛ الا أن الرجل ، مع الأسف ،
كما أسلفتُ عليك مريض . ولعل المرض هو الذي شغله عن متابعة الحركة
المصرية ومُدارسة قضيتها وتفهُّم ظواهرها وخوافيها ، فلم يكن ذلك المِعْوَان
الذي يتكى عليه رجال السياسة في معالجة القضية المصرية كلما جدّت
عظيماَت الأمور .

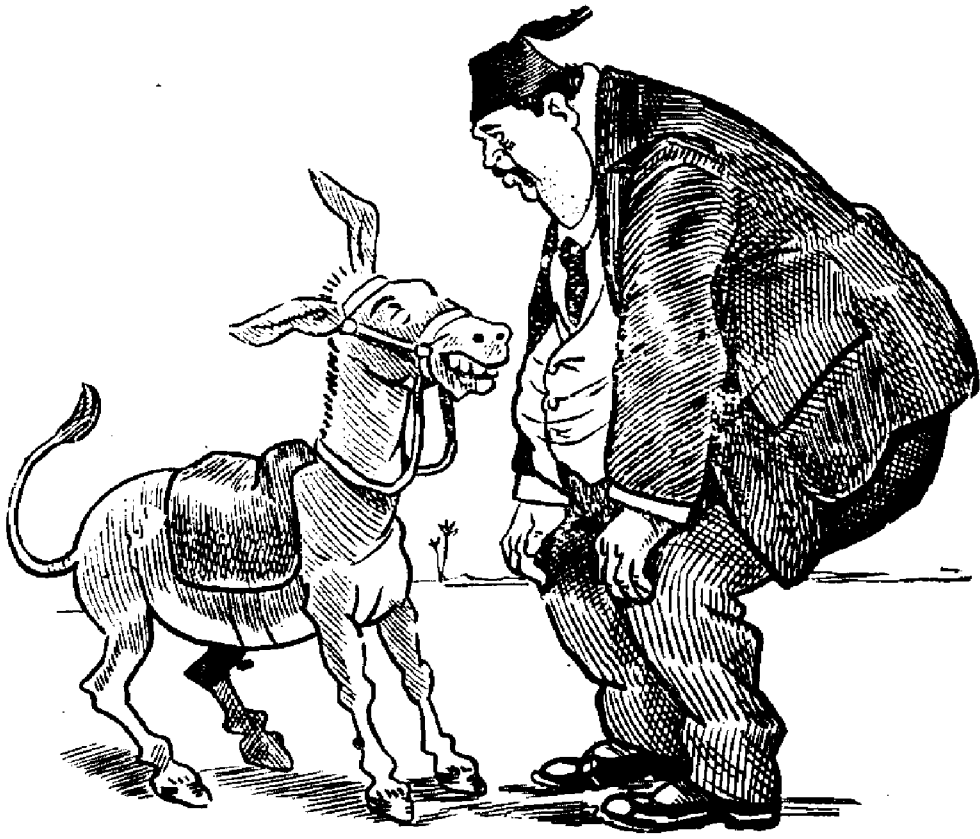
وفی الحق أن عزت باشا فی خطبہ البدیعة الرائعة عن السودان إنما كان رجلا وطنیا أكثر منه رجلا سیاسیا؛ فان مهمة السفير أن یخاطب الرجال الرسمیین لا یتخطأهم الی خطاب الشعوب . ولعل ظرفنا الخاص هو الذی بعث حرارة عزت باشا وأطلقه فی الشعب الانجلیزی بتلك الخطب السوانع . وكثیرا ما یغتفر فی أمثال تلك الرجات القومية تجاوز ما یدعونه بالتقالید . ولقد أخذوا عزیز باشا عزت بطول إجازاته وتركه مثنوی عمله الأشهر الطوال الی سویسرا للتداوی وتارات الی مصر . والرجل لم یكن متجنبیا ولا متبظرا فانه وأهله کلیهما مریض؛ وقد حدثك أن الطبیعة ظلمته، وأی ظلم أشنع من ظلم المرض، وحدثك أن الحكومة ظلمته اذ قلده بادی الرأی منصبا لا تضطع صحته بأعبائه، وإنه ليقدم الیها الاستقالة بعد الاستقالة وهی تأبی الا أن تردها الیه وأن تمسكه فی مركزه رغم أنفه، والناس له فی هذا كذلك ظالمون .

ویجمل فی هذا الموضوع أن نذكر أن الرجل لم یدلّ یده الی تناول راتبه طول مدة إجازاته فهو یردها علی خزانة الحكومة ردّا .

وأنت تعلم من مناقشات مجلسی البرلمان أنه لم یدخل فی شأن « بیوت هوس » بید ولا رجل، بل لقد أنكر هذه الصفقة أول الأمر وقضاها زیور باشا آخره فی سرّ منه اذ هو فی سویسرا .

وإن من الغیب أن یقال ان عزیز باشا عزت (یشتغل) سفیرا لمصر فی لندن، ولو سألتنی عن وظيفته الحقيقية لقلت لك إنه (یشتغل عیان) نساء الله أن یلقیه العافیة .

وبعد . فاذا كان لنا سفير في باريس وسفير في روما وسفير في الأستانة
وحتى لنا سفير في طهران ! أولا يصح أن يكون لنا سفير أيضا في لندن ؟
واذا كانت لنا صلات ببلاد فارس ، ولفارس في أسواقنا سجاجيد (وشيلان
كشمير) وسبح (كهрман) فاني أتخيل أن لانجلترا في أسواقنا شيئا يُدعى
الفحم ، وآخر يُدعى الحديد ، وثالثا يُدعى الأقمشة على اختلاف أنواعها ، ورابعا
وخامسا . . فاذا لم يكن بيننا وبين إنجلترا مسائل سياسية تستدعي أن نبعث
لها سفيرا ، فلا أقل من أن نبعته لما بيننا وبينها من وسائل تجارية !
واذا لم يكن في مقدور حكومتنا أن تقبل من عزت باشا ما يقدمه لها
من الاستعفاء ، فان في مقدورها أن تعجل له الشفاء ! .



لا تَخَفْ فاني والله خفيف ! ...

ابو نافع باشا أو عمدة سان استفانو

محمد أبو نافع باشا شخصية قوية يحق أن يتولاها الكتاب بالبحث والتحليل . على أنى إذا تجزّت عن أن أجلوّه تماما في هذه (المرأة) فلائ تلك الشخصية غريبة في بابها ، بل لعلها خرجت الى هذه الدنيا على غير سابق مثال . أما جسمه فيبدأ دقيقا من طرفيه كإيهما ، ثم ما يزال يتدرّج في الغلظ من كلتا الناحيتين حتى يبلغ السمن منتهاه ، عند (خط استواء) . ثم هو أفوه ، غليظ الشفتين ، حديد العينين ، قصير العنق . اذا مشى حسبته هضبة تضطرب في زلزال ، واذا جلس خلته تلعة فصلت عن أحد الأجبال .

عاقِل راجح العقل ، ذكيّ مشتعل الذكاء ، غنى - وافر الثراء ، يجمع من ألوان العلم بتاريخ هذا البلد وأحداثه وأحوال أسرهِ ونفسيّات رجالاته ما أحسب أنه لا يتسّق لرجل غيره .

وهو عذب الروح ، حلو الحديث ، بارع المجلس ، حاضر النكته يرسلها في موضعها في توقّر واحتشام . وقد دُعِيَ ، بحق ، عمدة (سان استفانو) لأنه ما تكاد تلوح علائم الصيف حتى يشدّ الرّحال الى الإسكندرية فيتخذ له دارا في الرمل ، فاذا كان الصباح من كل يوم خرج الى (كارينوسان استفانو) بفلس مجلسه الى يسار الداخل ، وفي هذا المجلس يحتشد الجمع الخافل من

الوزراء ، سابقين ولاحقين ، ومن مستشاري الاستئناف ، ومن المديرين ومن كبار الموظفين ، ومن الأعيان ، ومن أهل العلم والأدب ، لأن أبا نافع باشا يدعو كل من جاز به من أصحابه ويعزيم عليهم بكل عزيمة ، ويأبى إلا أن يقرب اليهم (على حسابه) كل ما يسألونه زلمان الكازينو من ألوان الحلوى والمياه المعدنية وما إلى ذلك ، ثم ينطلق في المجلس محاضرا مفاكمها محبوبك الحديث متزين الكلام إلى أن يحين وقت الغداء فينطلق (وحده) إلى داره ، فإذا كان العصر عاد إلى مجلسه وعاد إليه من ذكرت من صدور الناس ، فلا عجب إذا دعى أبو نافع باشا بعمدة سان استفانو ، ولا يدع إذا دعى مجلسه هنالك (بالمصطبة) .

وحدثت أن أبا نافع باشا شخصية غريبة ، والواقع أنه قد حيرني فيه ، فلم أعد أدري أهو أكرم الناس أم هو أبخل الناس ؟ فلقد أرى نفسه تطيب بالإففاق على كل من استراح إلى مجلسه في سان استفانو بالغا ذلك ما بلغ ، حتى ليخيل إلى أنني لو طلبت (على حسابه) كل يوم (Consommation) بمائة جنيه لسخا بها في هشاشة ولطف أداء ، على أنه طالما وعدني بأن يدعوني في داره إلى حفلة عشاء يسمعون فيها المرحومة المظ ، وما برح يطاولني في هذا وينظرنى حتى ماتت ، فتحولنا بالعدة إلى المرحومة الوردانية فما برح يطاولني وينظرنى حتى قضت هي الأخرى إلى رحمة الله ، ثم انتقلنا إلى الشهدية ، فبعد الحى حلمى ، ففلان ففلانة ممن طواهم الردى وأتى الموت على آخرهم حتى وصلنا بالسلامة إلى الآنسة أم كلثوم ، مد الله في عمرها ، حتى يحقق أبو نافع باشا وعده لى ويحقق رجائى فيه ، ولا أظننى أدعوا لأحد بالبركة

في الحياة وطول العمر كما دَعَوْتَ للآنسة أم كلثوم بأن يحببها الله تعالى حتى يدعونا لسماعها أبونافع باشا ! كذلك تجرى الأحداث في البلد فيهرع المياسير وغير المياسير الى الاكتاب بالأموال الجليلة والضئيلة ، ولكك لا تسمع لأبي نافع باشا خبرا ، ولا ترى له فيهم أثرا ، على أنك ، في بعض الأحيان ، تراه يسخو بالآلاف ويعدُّ صادقا بالآلاف وهو في صمت وكراهة للإعلان !

وهو رجل غريب في احتياطه وتحتججه ، فلا تراه قط يتهافت على شأن عام ، ولقد قامت الدنيا وقعدت وأنصدع البلد أحزابا وشيعا ، ثم كانت الانتخابات يتقاتل الناس عليها ويتناحرون فيها ، وأبونافع باشا جاثمٌ مجثمه لا يحذر اليها طرفا ولا يدا

وإنك لتجلس اليه والخطب قائم فما يزال يستدرجك ويستخرجك حتى تستريح اليه بمكنون رأيك اذ هو متحفّظ دونك ما تنفّصد نفسه من الرأي بكثير ولا قليل ! فاذا أنت عاجلته على أن يفضي اليك في الحدّث القائم بحقيقة رأيه ودخيلة اعتقاده ، راح يُرجحك بفنون من القول يطالبها بأفأكيه العذاب ، حتى يُنمَّ عليك المجلس أو تأخذ في حديث غيره .

وإذا تبيّن لنا أن نلمح جانبا من هذه النفسية الغريبة وأن نُصوّرَها للقارئ كما لمحا وكما يحتمل التعبير ، فالوجه في هذا أن الرجل إنما يأخذ نفسه بالاحتياط التام في كل قول وفي كل عمل ، وإن أكثر الناس ليتزلقون في الأقوال وفي الأعمال حتى اذا بان لهم وجه الأذى فيما تورطوا فيه راحوا يطلبون الخلاص ويلتمسون لهذا كل ما دخل في ذرعهم من فنون الحيل .

أما أبو نافع باشا فقد طَبَعَ نفسه بَادِيَ الرَّأْيِ عَلَى أَلَّا يَتَوَرَّطَ فِي قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ
(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) !

وأبو نافع باشا وإن كان شيخاً مُؤَفِّياً عَلَى الْحَرَمِ إِلَّا أَنَّهُ مَا زَالَ قَتَى الرُّوحَ ،
فهو لَا يَسْتَرِيحُ إِلَى الْقَعُودِ فِي الدَّارِ اسْتِرَاحَةَ الشُّيُوخِ ، وَلَا يَرْضَى لِسَنِّهِ وَلِمَنْزِلِهِ
أَنْ يَتَذَلَّ بِالْجُلُوسِ عَلَى مُتُونِ الْقَهَوَاتِ ، فَكَيْفَ يَصْنَعُ لِيَرْضَى شَيْخُوخَةَ سَنِّهِ
وَشَبَابَ رُوحِهِ جَمِيعاً ؟

لَعَلَّكَ تَعْرِفُ قَهْوَةَ (سَبَلَنْدُبَار) وَأَنَّهَا تَقَعُ فِي سِرَّةِ الْعَاصِمَةِ ، وَأَنَّهَا مَجَاز
كُلِّ غَادٍ وَرَائِحٍ ، وَمُتَرَاوِي كُلِّ سَانِحٍ وَبَارِحٍ ، وَإِذَا كَانَتْ لَا تَنْسَقُ لِلْمَجْلِسِ
أَبِي نَافِعٍ بَاشَا فَإِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ الْمُخْفُوفَ بِاللَّطْفِ لَيَشْتَقُّ بِجَوَارِ (سَبَلَنْدُبَار)
دَكَانَا لِلخَوَاجَةِ (سُوسِيدِي) الدَّخَاخِي ، فَلَمَّا إِذَا لَا يَجْلِسُ فِيهَا أَبُو نَافِعٍ بَاشَا فَيَكُونُ
لَهُ كُلُّ حِظِّ الْجَالِسِينَ إِلَى الْقَهْوَةِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ تَكَالِيفِهِمْ ؟ ! نَعَمْ إِنْ
أَبَا نَافِعٍ بَاشَا لَا يُدْخِنُ وَلَكِنْ هَلْ هَذَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَتَنَبَّهَ مَجْلِسُهُ فِي دَكَانِ
دَخَانٍ ؟ . وَلَقَدْ كَانَ يَجْلِسُ فِيهَا أَبُو نَافِعٍ بَاشَا وَبِإِزَائِهِ الْمَرْحُومُ مُحَمَّدُ الشَّرِيعِي بَاشَا
مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَيَجْلِسُ السَّبَاعِي بِكَ الْمَصْرِي وَبِإِزَائِهِ مُحَمَّدُ بَكْ حَتَّاتِهِ مِنْ النَّاحِيَةِ
الْأُخْرَى ، فَكَانَ أَرْبَعَتُهُمْ أَشْبَهَ بِالْأَرْبَعَةِ السَّبَاعِ الْقَائِمَةِ عَلَى حِقَاقِي كِبَرِي
قَصْرِ النِّيلِ . وَلَقَدْ طَالَمَا اشْتَهَيْتُ سَجَائِرَ سُوسِيدِي فَصَرَفَنِي عَنْ مَحَلِّهِ هَيْتِي
لِأُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ مِنْ سُكَّانِ الْآجَامِ .

وَمَا كَانَ أَوْسَعُ صَدْرُ هَذَا الرَّجُلِ وَأَبْلَغُ تَضَحُّيَتِهِ : فَائْتَانِ مِنْ هَؤُلَاءِ
لَا يُدْخِنَانِ قَطُّ ، وَهُمَا أَبُو نَافِعٍ بَاشَا وَالسَّبَاعِي بِكَ الْمَصْرِي ، وَائْتَانِ يُدْخِنَانِ ،

على أن أحدهما لا يُؤثر إلا سجاير (جا كليس)، فإذا انتهت سجايره رجا الحاجة
سوسيدى أن يبعث بفلامه ليحجى له بعلبة سجاير من محل جنا كليس !!
ولا تنس ما للأربعة الأقطاب من التكاليف الكثيرة والمطالب الوفيرة،
هذا يشتهى السمك البربون، وهذا يطاب (الملوخية) الحديدية، وهذا
يبحث عن سواق للأتوموبيل، وهذا يطلب (سمكريا) لإصلاح صنادير الدار،
وهذا يطلب (فكة) ورقة بخسين جنبها، وليس يُحتم كل هذه الخدم
إلا الحاجة سوسيدى المسكين !

ولعل كل عزاء الرجل عن هذا البلاء جميعه أن الله قيض لدكانه حُرَاسا
أربعة فلا يستطيع اقْتِحَامُهَا أَشَدُّ سُرَّاقِ الليل ولا أبرع لصوص النهار، على أنه
حين اقْتَحَمَ دكانه إحدى الليالى ومِرق من نِزائته أربعة جنيمات قرر أن
(يَحْصِم) من مرتب القُرسان الأربعة جلوس ثلاثة أيام ليُثَوِّها في (ضرب بُلْطَة)
على الرصيف حتى أذن الله وانقضى الأجل المحدود !



والواقع أن أبا نافع باشا أخذ نَفْسَه بِالْأَيْطَالِ من صُور الحياة إلا على
نواحيها المفرحة، وإنك لا تراه، مهما جَدَّ الجَدَّ وَأَزَمَّ الخطب، إلا مَرِحًا
طَرُوبًا، ولا تراه يعْرِضُ للأحداث العامة وغير العامة، مهما جَلَّ شأنها،
إلا من ناحية ما يَسْتَشِفُّ فيها من نكتة بارعة ورأى طريف . ولو كان
يُغَامِرُ كما يَغَامِرُ سائر الناس لَأَمْتَحَنَ في الحياة مَحْنَتَهُمْ ولَأَصَابَ من مُرِّها
ما يُصِيبُونَ، وإلكنه رجل فيلسوف، وإن فلسفته، على أى حال وجهتها،
أفلسفة سعيدة !



وما الدَّهْرُ إِلَّا من رُؤَاةٍ قَصَائِدِي * إِذَا قُلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِداً

شوقى

لو بعث الله الناس كلاما ما عدا أن يكون شوقى نفسه قطعةً شعريةً جميلةً نُظِمَتْ فى الحب والرحمة . دقيق الجرم ، لطيف الحجم ، متناسق الأعضاء ، مستدير الوجه ، لا تزال عليه أثارة من ملاحه الصبا وإن تَكَرَّشَتْ بعض معارفه بقضاء ما فوق الخمسين ، اذا أقبل عليك يحدثك مالت حدقاته عنك الى ما على يمينك أو شمالك أو ظلنا تضطربان بينهما حتى تُحَسَّ أنه يوجه على غيرك الحديث . ولقد ينقطع عن المجلس ، وهو فيه ، المرتين والثلاث ، فلا يسمع ولا يرى ما يدور بين يديه ، فاذا كان على هذه الحال ورأيت رأسه يحتلج ، وقد رَشَقَ ظُفْرُ إبهامه بين تَنِيَّتَيْهِ وراح يهمس بالتناغم يسُلِّخُها سلخا ، فإياك أن تفتَحِمَ عليه شأنه فإنه إنما يتلقَّى وحى القريض .

وهو خفيف الروح ، رفيق النفس ، تبيل الخلق واللسان ، ترى فيه غبطة العصفور وترى فيه وداعة الحمام . وهو ، كما قلت لك ، قطعةً من الحب والرحمة . واذا كان الحب ضعفا ، واذا كانت الرحمة ضعفا ، فلا شك فى أن شوقى أضعف الخلق أجمعين . ولم أره يوما غاضبا ولا ممهدا سبيلا للقسوة الى قلبه أو يده أو لسانه ؛ ذلك أن الله طَبَّعه على أن يتناول بما فيه من الحب كُلِّ ما يجرى فى هذا العالم من الخير ، وأن يتناول بما فيه من الرحمة

كُلُّ ما يجرى فى هذه الدنيا من أذى وشر . ومن هنا تُدرك كيف يشيع
ذكر السيد المسيح فى شعر شوقي ، وكيف يتغزل بأفتن الغزل فى سجاياه العذاب !

مقْرِط فى حب نفسه ، شديد الوآع بها ، مقْرِط فى حب بنيه شديد الولوج
بهم ، وإنه بعد ذلك لشديد الرقة للناس جميعا . أضعفه الحب وقَلَّ من عزيمه
فلا يستطيع أن يشهد مشهدا مؤلما ، ولا يستطيع أن يسمع قصة حزينة ،
ولو قد عَرَضَ لسمعه أو لبصره شىء من هذا لولَّى منه فرارا ولعلَّيَّ منه رُعبا .
ولوع بنفسه هيوب من أن تعترىها الأيام بمكروه ، وذلك الوجه فيما ترى من
دوام رضاه وارتياحه فلا تلقاه يوما شاكيا ولا برِّما بالحياة مهما تكدر العيش
وتتكر وجه الزمان ، فانه اذا أصابه الخير هَشَّ له وفرح به ، وإن أصاب المكروه
سببا من أسبابه أطار خياله كل مطير فراح يلتمس له فى الضير خيرا وفى المكروه
نعمة ، ثم جاءك يحدثك بمنة الله عليه وعنايته به ، فهو رجلٌ يستخرج الرضا
ويستكره سبب الغبطة على كل حال ! وإنه ليُسرف فى هذا إسرافا شديدا
لقد يصل بك أحيانا إلى العَجَب من أمير الشعراء !



وبعد فلنكم عالجتمُ القلم على أن يقول فى « شاعرية » شوقي فعصَى ،
ولكم بعثته بالبيان عنها فتعذر وأبى ، وإن ظُلما أن تريدنى « السياسة
الأسبوعية » على هذا وأن تقضى به على اليوم قضاء لزاما !

وليت البيان يُعارفَ استعير بيان شوقي ليصف شعر شوقي ، فليس يتعلَّق
بهذا إلا ذاك . وإنى لأخذ فى شعر هذا الرجل فما يزال يشفنى ويرفعنى حتى

أراني استحلت رُوحاً محضاً يطير بي عندَ السَّماك ، ويُحَلِّقُ مُحَلِّقُ الأُملاك ،
فاذا أتيت عليه وعدت الى نفسي فاذا أنا ما زِلْتُ جسداً رابضاً على هذه
الأرض ، واذا شعرُ شوقي ما يزال نُوراً يترقِّق في تلك السماء !

صائد لا يُخطئ سهمه ، وإنه ليُصيب أرفع المعاني من أول رمية ، وإنه
ليترفع بك اليها أو يتنزل بها اليك فتسيفها في غير عسر ولا عناء ، وإن كنت
حق شاعراً بأنه إنما جاءك بما يُجاوز تفكيرك ويعلو على مدى تخيلك .

ولقد ضرب في كل قصْد ، وجال في كل غرض ، فبرع وبذ واتى
بالطريف لا تُدرك آثاره ، ولا يلحق غباره . ومن عجب الزمان أن يخرج
شوقي في هذا الزمان ! ولا أدري كيف فز هذا الشاعر من شاطئ دجلة الى
شاطئ النيل ، ولا كيف تسلل من جيل أبي نواس الى هذا الجيل ؟ !

ولقد عارض الفحول من متقدمي الشعراء في أجل قصيدهم فما قصر عن
مداهم ولا انحذل عن اللحاق بهم ، بل لقد زاد عليهم من كل ما فتق العصر
في فنون المعاني يُرسلها في الكلام الناصح فلا ينبو عنها الطبع العربي ولا يجد
لها عليه شوزاً .

وشوقي هو شوقي من يوم سَدَن ومن يوم تحرك بالشعر لسانه ؛ آية من
آيات البيان يدوي بها السهل والجليل ؛ ولقد يكون التقدم في السن ، والتبسُّط
في العلم ، وتجارب الأيام ، وطول التمرين في نظم الكلام ، قد بسطت
في أغراضه وبصرته بكثير من مضارب القلم ، إلا أنها لم تزد ، وهيئات لها
أن تزيد ، في « شاعريته » كثيراً ولا قليلاً ؛ ذلك أن هذه العبقرية إنما

تُخَلِّقُ مع المرء خلقاً فلا تُنَالُ بكسب ولا تعليم ، فإذا كان لشيء من ذلك فضلٌ ففى مجرد الصُّقل والتَّهذيب .

وليس يدَّعى فى سُنَّةِ الله أن يَنْتَضِحَ طبعُ شوقى بكل هذا البيان العربى وهو ففى لا يَتَّصِلُ من أبناء العرب ، من أمه وأبيه بسبب ، ولا كان محصوله من لغتهم وأشعارهم ومحاضراتهم ومظاهر بلاغاتهم بأوفر من محصول من نشأ فيهم من أهل البيان فوثب دونهم وردَّ بيان بنى العباس عليهم — وإلا فمن عَلمَ البدر كيف يتألق ، ومن عَلمَ الغدير كيف يترقق ، ومن عَلمَ السَّحَرِ الجفون ، ومن عَلمَ الغمامة كيف تسحُّ بالعارض المُنُون ، ومن عَلمَ الوردة كيف تُتَنَفَّسُ بالأرج ، ومن عَلمَ البلبل كيف يتغنَّى بالرمل والمهرج ؟ ألا ذلك تقديرُ العزيز العليم !

وإن طبع شوقى ليجود بالشعر يُصيب به أعلى المعانى ما أحسبه يرتصد لها أو يعالجها بالمطاولة والتفكير، ولقد تراجمه فى بعض شعره ودأب طالب به فيروح يتفهَّمُه معك بمجاهدة الفكر وطول الشَّدِّ على العَصَبِ ، حتى إذا فر هذا الشعر واحتدَّت فيه الأذهان خرج للناس فيه من وجوه المعانى ما يُخِيرُ العقولَ ويذهب بالألباب . فإذا رأيتَ بعد هذا شوقى ولم تستطع التوفيق بين مجلسه وحديثه فى الأسباب الدائرة بين الناس ، وبين شعره الذى يُذِفُ بك ، كلما قرأته ، على السَّماك ، فاعلم أن هناك موهبةً أو ما يدعونه «عبقريَّة» ليس من الخُتم أن تُنَسَّقَ دائماً لسائر غرائز الإنسان !

وإذا رأيت أثر النعمة باديا على شعر شوق فلا يتعاضمك هذا من لاغاء
إسماعيل طفلا ، ورباه توفيق يا فعا ، وخرجه عباس رجلا ، وعاش عمره
متقلب الأعطاف في الترف والنعم .

وقيل يوما لابن الرومي : كيف يسبقك هذا الغلام (عبد الله بن المعتز)
إذا وصف ، فلا تلحقه أنت ولا أضرابك من مشيخة الشعراء ؟ فقال : لأنه
إذا تكلم فإنما يصف آية بيته !

وشوق لا يحفل كثيرا بنسج الكلام وتزوير اللفظ وتزويق الديباجة ؛
فإن طبعه قد انصرف أكثره الى المعاني حتى إنه ليحمل اللفظ أحيانا ما يشاء
ويهظه ويكد ذهن الفارئ في التماسه وتبينه ؛ بل إنه في سبيل الوفاء بما
قصد له من المعنى لياتي أحيانا بالغريب الشامس من اللفظ لا تدرك معناه
إلا بعد مراجعة وطول استخبار !

على أنني في هذه المرأة بسبيل تحليل نفس شوق لا تحليل شعره ، فمن
كان لم يزل في حاجة الى التهدى لفاخر شعره وعيون قصائده ، وهى فوق أن
يتناولها العدد ، فليطلب بعضها في قصيدة صديقه شاعر النيل التى أعدها
للخفل الكبير ، فليس أقدر على الدلالة على فاخر شعر شوق من حافظ إبراهيم .

وقد يُسَفُّ شوق كما كان يُسَفُّ بشار وأبو نواس وأبو تمام والبُحرى
والمتنبي والمعتزى ومن دخل فى خلهم من جلة الشعراء ، ولا بد للطائر المخلق
أن يستريح هنيهة بالإسفاف ؛ وإنك لو وازنت بينهم وبينهم فى نصاحة
شعرهم وحبك قريضهم وارتفاع معانيهم ، وفى إسفافهم ذاك وترايل

ألفاظهم وفسولة معانيهم خللتهم إنما يعتمدون هذا اعتمادا استيجاما بالعبث
أو تجنيا على ما أمكنهم الله من نواصي البيان !

وقلت لك إننى لست بسبيل تعليل شعر شوقي حتى أضرب على ما تقدم
به القول مختلف الأمثال .

وشوقى فنّان كل الفنّان ، يكلف بفنه ويغرم بآثاره غراما شديدا . وليس
يؤذيه شيء كما يؤذيه أن تتره حقه وتتحيف من قدر صناعته .

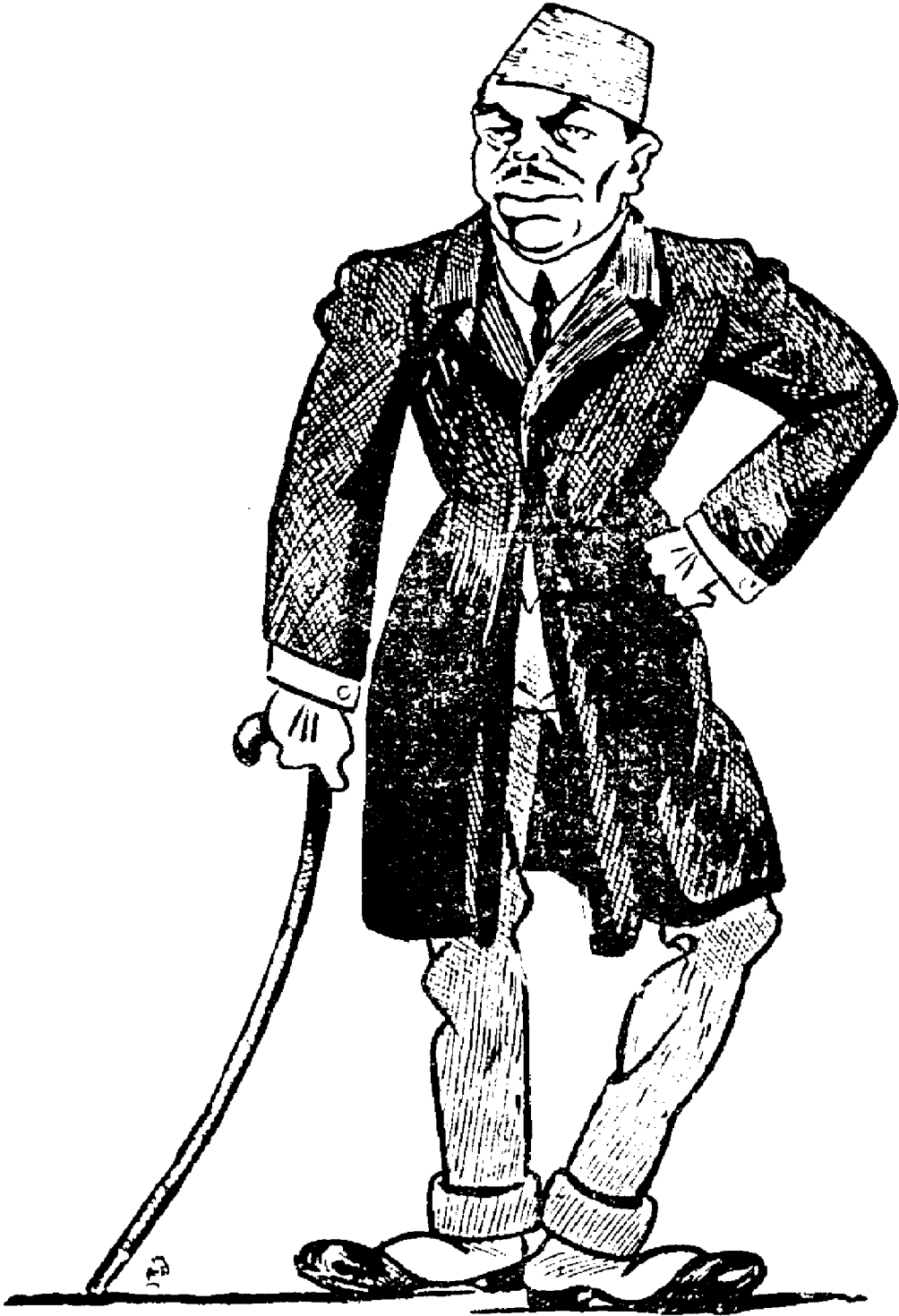
ولقد قلت لك إنه ضرب بالشعر فى كل قصد ، وجال به فى كل غرض
فبذّ وبرّع — استغفر الله إلا الهجاء فما أحصى عليه فيه بيت واحد ، اللهم
الا أن يتندّر ويلعب بالشعر لا يبلغ به الإقذاع ولا يتردى به الى داعر
الكلام ؛ ولا أدرى أكان ذلك ترفعا من نبّل النفس وكرم النشأة ، والنزاهة
عن التندّس الى مكاره الناس ؟ أم أنه يرجع أيضا الى تلك الطبيعة الغريرة
والنفس الحلوّة ؛ فهيات للعصفور أن يكون بازيا ، وللحمل الوداع أن
يستحيل ذئبا عاديا !

وللكتاب شعر تعرفه بحفافه وجرّانه فى مثل أقيسة المنطق ؛ وللشعراء
نثر تعرفه بترايل لفظه وانقطاع جملته وعدم استرسال معانيه . اذا عرفت هذه
القاعدة تهيا لك أن تعرف كيف يكون نثر أمير الشعراء ! . على انك واجد
لنثر شوقى حلاوة ، برغم ما يقيده من أسجاع الكهان ؛ ولكنها حلاوة شعر
لا حلاوة كلام مرسل ، وكأنى به اذا اعتم الكتاب فى بعض الأغراض نظمها
أولا فى شعر مقفى موزون ؛ ثم كسره تكسيرا وبذره على القرطاس بذرا .

ولسان شوق لا يفى بمطالب أدبه ولا خياله ؛ وإن فيه فوق هذا تجللا
يُمسكه عن الكلام أحيانا في مواطن الكلام ، وقل أن تراه يتبسّط في حديث
إلا إذا خلا إلى نقر من صفوة خلّانه ؛ على أنك إذا شهدت مجلسه ولم يُسرَّ
إليك أحد بأنه شوقى لما سَهّل عليك أن تُدرك أن هذا شوقى الذى ملا
طباق الأرض بيانا !



وليس جديدا أن أنبئك بأن العبقرية كثيرا ما تَضَحّم في المرء على
حساب ما فيه من الغرائز ، وكأنى بها تملك عنها قدرا من غذائها حتى ما تدع
لبعضها قواما . وتلك العلة ، لا شك ، فيما تراه وتسمعه من شدوذ جميع
العبقرين في العالم . فإذا كنت منكرا على شوق شيئا من الشذوذ فإنك منكراً ،
من حيث لا تريد ولا تجرؤ ، تلك العبقرية الفحلة . وحسبه أن أصبح بها
ملء الأرض ، وحسبه أن أضحى بها حديثا للتاريخ طويلا .



وَإِنِّي مِنْ قَوْمٍ كَانَ نُفُوسُهُمْ * بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا

محمد محمود باشا

تاريخ كبير في سن صغيرة ، وشأن جليل ، في جسم ضئيل . ولعل محمد باشا محمود لم يُدْرَفْ ^(١) بعدُ على الخامسة والأربعين ؛ ولحكَّ حين تقلب الذهن فيه يَنسرح منه الى مدى عريض . وحسبك أن ترى أرنبة أنفه وهو يُسَدِّدها اذ يتحدث اليك أو ترفعها له الطبيعة ، لتدرك أنه رجل لا يريد إلا أن يكون عظيما ، أو على الصحيح ، أنه لم يُخَلَقْ الا لعظيم . وكذلك كان محمد محمود من يوم أخرجَه أبوه للتعليم في مدارس الحكومة ، فكان في السنة الأولى أوَّلَ لِدَاتِهِ جميعا ، فلما تحوَّل الى الثانية كان فوق أن يكون أوَّلَ تلاميذها ، فوثب به الناظر الى السنة الرابعة طَفَرَةً . وجاءَ اهْلُ وزارة المعارف ”دنلوب“ ليطالعَ مدرسة أسبوط ويتشرف على سَيْرِ التعليم فيها ، فلما انتهى الى تلاميذ السنة الرابعة رأى غلاما دقيقا لا تُتصل سِنُّهُ بأهل تلك السنة ، فبعثه من مجلسه وجعل يسأله وجعل محمدٌ يحسن الجواب في غير تَتَعُّعٍ ولا وَرَعٍ حتى راع دنلوب شأنه ، فسأل الناظر عنه فنَقَضَ له جملةَ خبره ، ففَطَمَ بدنلوب أن يُنقل تلميذٌ من السنة الثانية الى الرابعة طَفَرَةً ، فعجَّلَ العقاب لذلك الناظر المسكين ! ولا أدري أكانت فَعْلَةٌ دنلوب حرصا على النظام أم حرصا على ألا تَفْسَحَ مدارس الحكومة طريقَ النبوغ لأهل النبوغ ؟ !

(١) لم يزد عليها .

وَيَمْضِي محمد محمود في سبيله الى المدارس الثانوية بعد إِذْ يُحْزِرُ الشهادة الابتدائية، ولا يكون شأنه في الأولى إِلا كَشَأْنِهِ في الثانية مجلِّيا أَبداً ، حتى اذا ختم علومها وأحرز (البكالوريا) متقدِّماً مضى الى انجلترا وانتظم طالباً في جامعة (أكسفورد) وكان له في جامعة أبناء الأعيان من الانجليز ما كان له هنا : إِنْجَابٌ على الدرس، وطاعة في عزرة نفس، وَنُبْلٌ يُمْلِيهِ الحَسَبُ ، وكرامة يزكِّيها ما يُفْضِي له أبوه من مال ونَسَب . وكذلك عاش محمد محمود مثلاً أعلى للكرامة المصرية في أعظم جامعات انجلترا بين أبناء أعظم أعيان الانجليز . وتَأَبَّى عليه (أربعة أنفه) كذلك إِلا أَنْ يكون بينهم مجلِّياً في انجلترا كما كان مجلِّياً بين معشره في مصر، حتى أحرز أعلى الشهادات . وينقلب الى مصر قريرة به عين شيخ جليل طالماً صَدَقَ في خدمة مصر بلاؤه ، وتمحَّض في هواها إخلاصه ووفائه .

ودخل محمد في خدمة الحكومة مفتشاً، على ما أظن، في وزارة المالية، فسكرتيراً لمستشار الداخلية، وتَضَيَّقَ هذه المساحة عن همته كما تضيق بمطامعه في الحياة، فيغامر في ميدان السياسة، ويغامر فيها بحزب قوى يجمع (أرباب المصالح الحقيقية) ورؤساء العشائر في البلاد، ويقوم « حزب الأمة » عَوَاناً بين الحزب الوطني وحزب القصر في تلك الأيام . وكان الشيخُ الجليلُ محمود باشا سليمان رئيسَ هذا الحزب، وكان الأستاذ الأكبر لطفى السيد على تَرْجُمَانِهِ (الجريدة)، ونالفت إدارته من مشيخة من أهل الرأي والعلم والغنى والحَسَب في البلاد، وكان لمحمد محمود فيه، من وراء السُّتار، رأىٌ كبير .

وَيَضْطَرِبُ بَعْضُ الْأَمْرِ عَلَى اللُّورد كرومر بِشُيُوعِ الدَّعْوَةِ الْوَطَنِيَّةِ
وَاطْرَادِ قُوَّتِهَا وَاسْتِفْحَالِهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، فَيَخْطُ لَهُ نَهْجًا جَدِيدًا ، ذَلِكَ بِأَن
يَسْتَأْلِفُ رُؤَسَاءَ الْعَشَائِرِ (أَصْحَابِ الْمَصَالِحِ الْحَقِيقِيَّةِ) وَيُقِيمُ عَلَى الْمُرَافِقِ الْعَامَّةِ
أَهْلَ الْكِفَايَاتِ مِنْ أَوْلَادِهِمْ أَصْطِنَاعًا لَهُمْ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَاسْتِصْلَاحًا لِأَسْبَابِ
الْحُكْمِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ؛ فَقَدْ كَادَ الْأَمْرُ كُلَّهُ يَفْسُدُ بِاسْتِخْدَاءِ رِجَالِ الْإِدَارَةِ^(١)
لِصِغَارِ الْمُفْتَشِينَ الْإِنْجِلِيزِ وَاسْتِنَامَتِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَمْرِ لَهُمْ ، إِذْ تَشَبَّ فِي الْوَقْتِ
نَفْسَهُ حَرَكَةٌ وَطَنِيَّةٌ عَنِيفَةٌ تَطَالِبُ بِجَلَاءِ الْإِنْجِلِيزِ جَمَلَةً وَتُسَلِّمُ مُرَافِقَ الْبِلَادِ
لِأَهْلِ الْكِفَايَاتِ مِنْ أَبْنَاءِ الْبِلَادِ ؛ فَأَقَامَ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ مَدِيرًا لِلْفَيُومِ وَسُرَّعَانَ
مَاجَمَعَ بَيْنَ احْتِرَامِ الْإِنْجِلِيزِ وَرِضَاءِ الْمَصْرِيِّينَ ؛ وَكَانَ (لِأَرْبَةِ أَنْفِ) فَضْلٌ عَظِيمٌ
فِي مُدَافَعَةِ يَدِ الْمُفْتَشِ عَنْ مُعَالَجَةِ الْأُمُورِ ؛ إِلَى قُوَّةِ عِزْمٍ ، وَحَسَنِ إِدَارَةٍ ،
وَصَلَابَةٍ فِي مَوْطِنِ الرَّأْيِ . وَلَعَلَّهَا كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ ، أَوَّلَ تَجَرِبَةٍ أَجْدَتْ
عَلَى الطَّارِفَيْنِ جَمِيعًا .

ثُمَّ عُنِيَ مُحَافِظًا لِلْقُنَالِ ، فَمَدِيرًا لِلْبَحِيرَةِ يَسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ حَيْثُمَا كَانَ ؛ (وَيَأْنَفُ)
مِنْ أَنْ يَظْهَرَ عَلَى رَأْيِهِ رَأْيُ إِنْسَانٍ ، وَلَوْ كَانَ الْمُفْتَشُ وَآوْكَانَ الْمُسْتَشَارَ ، وَتُخْرِجُ
مِنْ هَذِهِ الْحَالِ صَدُورٌ وَتَضْطَعْنَ عَلَى مُحَمَّدٍ بَاشَا مُحَمَّدٍ قُلُوبٌ ، فَيُتَرَبَّصُ بِهِ
الْمَكْرُوهُ ، حَتَّى كَانَتْ حَادِثَةٌ فِي الْبَحِيرَةِ أَرَادُوا أَنْ يُجَاجِلُوا فِيهَا الْمَدِيرَ فَمَا اسْتَطَاعُوا
إِلَّا أَنْ يَسْتَقِيلَ أَوْ يُقَالَ مِنَ الْمَنْصَبِ ، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ بَعْدُ فِي مَيْعَةِ الصَّبَا ، ضَحِيَّةً^(٢)
لِلْإِسْتِقْلَالِ بِالرَّأْيِ ، أَوْ ضَحِيَّةً (أَرْبَةِ الْأَنْفِ) لَا تَنْزِلُ عَلَى الْمَهَانَةِ فِي أَىِّ حَالٍ .

وَلَيْتَ حَتَّى أَعْقَابَ سَنَةِ ١٩١٨ إِذْ تَقِفَ رَحَى الْحَرْبِ فَيَتَقَدَّمُ فِي أَصْحَابِهِ
 الْغَطَارِيفِ لِلْمَطَالِبَةِ بِمَحَقِّ مِصْرَ فِي حُرِّيَّتِهَا وَاسْتِقْلَالِهَا ، وَيُؤَلِّفُونَ الْوَفْدَ الْمِصْرِيَّ
 وَيُهَيِّبُونَ بِالْبِلَادِ فَتَنَهُضُ فِي آثَارِهِمْ ، فَتَقْبِضُ السَّلَاطَةُ الْقَوِيَّةَ عَلَيْهِ مَعَ دَوْلَةِ
 رَئِيسِ الْوَفْدِ وَاثْنَيْنِ مِنْ أَعْضَائِهِ وَتَنْفِيهِمْ إِلَى مَالِطَةِ ، فَيَمْضُونَ إِلَيْهَا بَارِزِي
 الصَّدُورِ ، مَرْفُوعِي الْأَنْوَفِ ، هَاتِفِينَ مِلءَ أَشْدَاقِهِمْ : أَلَا فِي سَبِيلِ مِصْرَ ،
 فَتَحَى مِصْرًا ! ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِ الْوَفْدِ وَعَظِيمِ جِهَادِهِ مَا تَعْرِفُ ، وَلَا مَحَلَّ لِمَعَاوَدَةِ
 الْقَوْلِ فِيهِ ، إِلَّا أَنْ أُلْمَعَ إِلَى مَا كَانَ لِمُحَمَّدِ بَاشَا مُحَمَّدٍ فِيهِ مِنْ كَرِيمِ الْمَنْزِلَةِ
 بِشِدَّةِ عَقْلِهِ ، وَصِحَّةِ رَأْيِهِ ، وَقُوَّةِ عَصَبِيَّتِهِ فِي كَيْدِ الصَّعِيدِ .

وَلَا يَفُوتُنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ نَذَلَّ عَلَى سَعْيِهِ فِي أَمْرِيكَ إِذْ شَخَّصَ عَنْ
 الْوَفْدِ لِبَيْتِ الدَّعْوَةِ الْمِصْرِيَّةِ هُنَاكَ ، فَتَمَّ لَهُ كُلُّ مَا أَرَادَ مِنَ الْفُوزِ وَالنَّجَاحِ .
 وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ اسْتَرَا حُوا إِلَى فِكْرَةِ الْإِتِّلَافِ السَّعِيدَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَوْلَهُمْ
 جَمِيعًا ، كَمَا كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْعَامِلِينَ عَلَى تَحْقِيقِهَا .



وَإِذَا كَانَ مُحَمَّدُ بَاشَا مُحَمَّدٌ مَدِينًا بِمَاضِيَةِ الشَّرِيفِ الْقَوِيِّ (لَأَرْبَعَةِ أَنْفِهِ)
 فَهُوَ كَذَلِكَ مَدِينٌ لَهَا بِكُلِّ مَا يَحْقِيقُ عَلَيْهِ النَّاسُ . وَاسْمَحْ لِي فِي هَذَا الْمَقَامِ
 يَا مَنَالَى الْوَزِيرِ أَنْ أَضْغَطَ عَلَى (أَرْبَعَةِ أَنْفِي) أَنَا الْآخِرُ فَأَرْفَعُهَا بِمَقْدَارِ ٢ سَنْتِيْمَتَرٍ
 حَتَّى أَسْتَطِيعَ أَنْ أَصَارِحَكَ الْقَوْلَ وَأَخَاطِبُكَ بِخُطَابِ الْأَكْفَاءِ لِلْأَكْفَاءِ :
 إِنْ خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، وَأَنَا مَعَ الْأَسَفِ مِنْهُمْ ، شَدِيدُ الْمَوْجِدَةِ عَلَيْكَ بِمَا

يَظُنُّونَ فِيكَ مِنْ جَنَفٍ^(١) وَكِبْرٍ وَتَهَاوُنٍ لِلنَّاسِ . وَاِنَّكَ لَتَقْتَضِيهِمْ أَنْ يَتَوَافَوْا
لِدَعْوَتِكَ لِلشُّوْنِ الْعَامَّةِ بِكُلِّ مَا مَلَكَوْا مِنْ رَأْيٍ وَجَاهٍ وَمَالٍ ، حَتَّى لَوْ دَعَا الْأَمْرُ
إِلَى ابْتِذَالِ الْمُهْجِ ، وَالتَّضْحِيَةِ بِالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ؛ إِذْ أَنْتَ لَا تَحْتَفِلُ لِحَاضِرٍ ،
وَلَا لِنَفَقَدٍ غَائِبٍ ، وَلَا تَعُودُ مَرِيضًا ، وَلَا تَشِيْعُ جِنَازَةً مَيِّتًا ، وَلَا تَأْتِيهِ لِأَصْحَابِكَ
مَهْمَا كَرَّهَ مِنْ الْأَمْرِ وَنَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْمَكْرُوهِ ؛ حَتَّى فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَحْتَاجُ فِيهِ
الدَّاعِيَةُ إِلَى مَصَانَعَةِ جَمِيعِ النَّاسِ ! !

وَإِنِّي لِأُصَارِحُكَ بِهَذَا (وَرَزَقَنِي عَلَى اللَّهِ) فَإِنْ كُنْتَ آخِذِي عَلَى هَذِهِ الْمَعْتَبَةِ
بِقَطْعِ (التَّلِيفُونَ) عَنِّي فَلَا أُحِجُّنِي اللَّهَ إِلَيْهِ ، أَوْ مُجَازِيَّ بِمَنْعِي مِنَ السَّفَرِ
فِي سَكَةِ الْحَدِيدِ فَإِنِّي (أَدُقُّ كَعْبًا) إِذَا لَمْ تَهَيَأْ لِي الْجَمَالَ وَلَا الْبَرَادِينَ ، أَوْ مَعَاقِبِي
بِعَدَمِ التَّخَاطُبِ بِالْبَرِيدِ ، فَلَيْسَتْ كُتِبِي مِمَّا يَسِّرُ الْقَلْبَ ، وَتَفْضُلُ مِنَ الْيَوْمِ
بِتَحْوِيلِهَا إِلَيْكَ فَإِنْ تَرَى فِيهَا إِلَّا مَطَالِبَةً (بِذِمَامَاتٍ) مُتَأَخَّرَةً ، وَتَذَكِيرًا بِدَيُونِ
مُنَسَاةٍ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ (فَاللَّهُ يَغْنِيهَا) عَنْ وَزَارَةِ الْمَوَاصِلَاتِ كُلِّهَا .

وَالْعَجَبُ أَنَّ مُحَمَّدَ بَاشَا مَحْمُودَ ، مَعَ هَذَا التَّجَنُّيِّ كُلِّهِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، رَجُلٌ
شَدِيدُ الْأَدَبِ ، لَطِيفُ الْمَحَاضِرَةِ ، إِذَا أُذِنَ لِلَّهِ وَكُشِفَ لَكَ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدَرِ
فَأَصْبَتْهُ فِي دَارِهِ يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلنَّاسِ ! وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَفْسِّرُ مَا أَقْنَعَنِي بِهِ رَجُلَانِ
فَاضِلَانِ مِنْ أَنَّ مُحَمَّدَ بَاشَا مَحْمُودَ لَا كِبَرِيَّةَ وَلَا بَرَمَ^(٢) بِالنَّاسِ ، إِنَّمَا هُوَ الْمَرَضُ
الْمَلِيحُ الْمُنْدَارِكُ يَحْتَازُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَرْجُو مِنْ مَصَانَعَةِ النَّاسِ وَتَفَقُّدِهِمُ وَالتَّجَمُّلِ
لَهُمْ . وَإِنِّي لِأَقْبِلُ هَذَا التَّعْلِيلَ (تَحْتَ الْحِسَابِ) . وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَى
مَعَالَى الْوُزَيْرِ بِالْعَافِيَةِ كُلِّهَا لِيَنْعَمَ هُوَ بِهَا وَيَنْعَمَ بِهَا النَّاسُ وَيَنْعَمَ الْوَطَنُ .

(١) إغراض وتنج . (٢) البرم بالناس : الضجر منهم .



خَلَدْتُ «نَهْضَةَ مِصْر» فَلَدَّنِي تَمَثَّلُهَا

مختار « التمثال »

بَيْضَة كبيرة ينتهى سِنها باحِية دَقِيقَة مرسَلَة على شكل مِثلث متساوى الساقين . فاذا حُسِر الطربوش أو القُبْعَة عن رأس « البيضة » رأيت غديرا فى صفاء المرآة وهدوئها ؛ يقوم على حِفافِيه نبت غزير ، وتلك أيضا رأس مختار المِثال . وهو كذلك من الرجال الذين تعرفهم بصلَّتْهم إذا ولّوا . وهو أبيض اللون ، له تانك الحدقتان المتحيرتان فى عيون أكثر نوابغ العالم . أما أنفه فبائن الطول والانتفاخ فى غير كِبَر ولا تِيَه ، يتدلّى على فم لولا غِلْظ فى شَفَتيه ما بان ولا آنكشف . ثم هو بعد هذه (الزحمة) منتظم الجسم متَّسق الجوارح ، والحمد لله !

ومختار ضخم الصوت ؛ فاذا أرتفع صوته تسلَّخت بعضُ شعبه ، وإذا تحدّث ، سواء بالعربية أو الفرنسية ، سمعت لفظ مجاور متحدِّق فى « تطجينة » عامل من سكان الخارطة بجوار سيدى أبى السعود !

والعجَب أنه مع هذا كله رجل (Moderne) مطبوع فى تفكيره ، وذوقه ، وأناقته أيضا على آخر طراز . وهو نائر عفيف الصَّولة على كل قديم ؛ متعصّب شديد الهوى الى كل جديد . لا يعبأ فى طلب هذا لنفسه ولقومه بعادة ولا بتقليد ، ولا بما هو أشد من العادة والتقليد . وهو اذ نضا عنه الطربوش واتخذ القُبْعَة لم يكن مُفتاتا على عيشه الذى يكاد يكون أوربيا

خالصا، ومن العَجَب أيضا أنك تراه مع ذلك يستريح الى الحياة (البلدية) كلما تهيأت له، فيأكل بكل كَفِّه، ويُعلّق أسنانه فلا يتعبها بمضغ ولا قضم، فاذا اتصل الحديث في المجلس بألوان المنادرات والمفاكهات سمعت من مختار المطرب والمعجب من كل نادرة طريفة، (ونكتة) رائعة، حتى ليخيل لك أن سَنَّهُ تكترسَين سنة، قضى نهارها في « التريعة » وليّها في غُشيان الأعراس « الوطنية » وحضور مجالس « الشعراء » على حواشي القهوة « البلدية » واستماع ما يتطارح به جماعات المتظرّفين من فنون النكات !

وهو صافي النفس، عظيم الشجاعة، وافر الذكاء. لا يعنيه شيء في الدنيا قدر عنايته بنفسه الجليل .

وفي الحق أن مختارا مجموعة (Assortiment) تضم ألوانا من الغرائب والمتناقضات. ولعل ذلك هو الذي هيا له كلّ هذا النبوغ العظيم. وإن مثالا — يتروى فنه في بلاد الغرب عن أكبر رجاله، ويظلّ السنين الطوال في ملابتهم ومحاكاتهم والتفطن الى مداخل صنعتهم حتى يحذقه ويرع فيه ثم ينقلب الى بلاده فاذا هو بصير بكل عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومحاضراتهم وماجلّ ودق من شؤونهم على نفرّق طوائفهم واختلاف بيئاتهم — هو جدير بأن يكون في فنه الحُسان كلّ الحُسان .



وقد نجم مختار من أسرة كريمة، فلما يقع أخرجته، على العادة، للتعليم في المدارس الابتدائية، فحضى في درسه غير وآن ولا مُتخالف، على أنه لم يكّد

يَطْوِي فِي الطَّلَب بَضْعَ سَنِينَ حَتَّى بَدَأَ مِيلَهُ وَاضْحًا لِلرَّسْمِ وَالتَّصْوِيرِ، فَلَا يُرَى
مُجَاجًا عَلَى دَرَسٍ إِكْبَابَهُ عَلَيْهِ فِي « حَصَّة » الرِّسْمِ، وَلَا يَكَادُ يَرَى هُوَ نَقْشًا بَادِيًا
أَوْ صُورَةً مَعْلُوقَةً إِلَّا وَقَفَ يَتَصَفَّحُ وَيَتَأَمَّلُ وَيُشِيرُ كُلَّ حِسِّهِ فِي تَقَاسِيمِهَا
وَمُتَخَالَفِ خُطُوطِهَا وَتَعَارِيضِهَا، ثُمَّ اسْتَلَّ رِيشَتَهُ وَأَدَوَاتَ رِسْمِهِ الصَّغِيرَةِ
وَرَاحَ يَحْكُمُهَا بِكُلِّ مَا تَهَيَّأُ لِلْوَهْبَةِ النَّاشِئَةِ فِي ذَلِكَ الْحَرَمِ الصَّغِيرِ! وَظَلَّ كَذَلِكَ
عِدَّةَ سَنِينَ لَا يَعْدُو مِنْهُ الْاجْتِهَادُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ عَلَى الْاجْتِهَادِ فِي تَرْبِيَةِ تِلْكَ
الْمَلَكَةِ مَا اسْتَطَاعَ إِلَيْهَا السَّبِيلَ .

وَكَانَتْ مَدْرَسَةُ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا سَمُو الْأَمِيرِ الْبَارِزُ يَوْسُفُ كَمَالٍ ،
فَتَرَعَتْ إِلَيْهَا نَفْسُ مَخْتَارٍ ، وَلَعَلَّهُ لَقِيَ مِنْ أَهْلِهِ فِي دُخُولِهَا عَتَا ، وَكَيْفَ
لَا تَعْنَتْ الْأُسْرَ الطَّيِّبَةَ ، فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَيَّامِ ، إِذَا رَأَتْ وَلَدَهَا يَمِيلُ عَنْ طَرِيقِ
الْحَقُوقِ أَوْ الطَّبِّ أَوْ الْمَهْنَدِسَةِ إِلَى طَرِيقٍ لَا تَنْتَهِي بِسَالِكِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ
(مَصُورَاتِي) أَوْ حَفَارًا أَوْ نَقَاشًا ؟ ! ...

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَقَدْ تَمَّ لِمَحْمُودِ مَخْتَارٍ مَا أَرَادَ مِنْ دُخُولِ مَدْرَسَةِ الْفُنُونِ
الْجَمِيلَةِ ، أَوْ بِعِبَارَةِ أَحْكَمَ ، لَقَدْ تَمَّ مَا أَرَادَ اللَّهُ لِمِصْرَ مِنْ أَنْ تَرَى نَابِغَةً مِنْ أَبْنَائِهَا
يَخْلُدُ نَهْضَتَهَا عَلَى تَطَاوُلِ الْأَعْصَارِ !

وَفِي هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ جَعَلَتْ مُوَهِّبَةُ مَخْتَارٍ لَتَجَلَّى ، وَجَعَلَ أَسَاتِيذُهُ يَخْصُونَهُ
بِعَنَائَتِهِمْ لَمَّا أُنْسُوا فِيهِ مِنْ مَخَايِلٍ تَدُلُّ عَلَى مُسْتَقْبَلٍ عَظِيمٍ ، وَبَقِيَ هُوَ ، طَوَّلَ
مُدَّةَ الطَّلَبِ ، مَجْلِيًّا لَا يُلْحَقُ : إِكْبَابًا عَلَى الدَّرْسِ ، وَاجْتِهَادًا فِي التَّمْرِينِ ،
وَتَوَافِيًا لِكُلِّ دَقِيقٍ مِنْ الْمَاحِظَاتِ الْأَسَاتِيذِ ، حَتَّى إِذَا بَرَعَ بِقَدْرِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ

يَرَع طالبٌ في مدرسة الفنون الجميلة في مصر رأى أن ضمّاه للفن لا ينقعه إلا أن يغترفه من أصفى ينابيعه ، فشخص من قوره الى باريس وأنظم في أعظم معاهدها ، أشخصه اليها كذلك سمو الأمير يوسف كمال ؛ وظل يتعلم على أكبر أساتيدها عشر سنين متواليات ما أحسبه انحدّر في خلاها الى مصر مرة واحدة ، واجتمعت شهادة أقطاب الفن هناك على أن هذا الفتي «المصرى» ولا فخر ينبغي أن يكتب في جريدة كبار المثّالين . ويُعهدُ اليه في «معهد جربثان» بمنصب كبير ، وما كان هذا ليسوع لأجنبي قط لولا نبوغ مختار الذي أوفى على كل تقدير .

ويشاء الله لمصر أن تنبعث ، ويشاء لها نهضة قوية يلتفت لها العالم كله ، فتثور موهبة مختار هناك وتأتي ثورتها أن تهدأ إلا اذا كشفت سرّ أبي الهول الذي ظل محمّونا في أطواء صدره المقبوض آلاف السنين ، واذا أبو الهول ناكس الرأس من وجد وأسى على مصر الأسيرة العانية ، واذا أبو الهول يرفع رأسه وينبعث ، لأن مصر نهضت تفكّ أغلالها لتسعى في أرض الله سعى الأحرار .

وكذلك نرج تمثال «نهضة مصر» فتاة فلاحه تبعث أبا الهول فيتحفز للوثاب ، ويتهيأ للغلاب .

وما كاد مختار يعرض تمثال تمثاله في «صالون باريس» حتى هرع اليه كبار رجال الفن وأقبلوا على «المثال» المصرى بأنهم الهناء والإعجاب ، وتطايرت الأخبار الى مصر فسرّعان ما اجتمع من شبابها كل نذب وطني

نَجِيد، وسرعان ما نَدَّوْا بالأموال واستندَوْا أبناء الوطن ليسجلوا « نهضة مصر »
ويرفعوا تمثال مختار ويرفعوا معه اسم مواطنهم النابغة مختار، بجمعوا آلافا
من الدنانير اذا لم تُغن في العمل الجسيم فقد مهدت السبيل لأن تتولاه
حكومة الشعب، ومن حق حكومة الشعب أن تتولاه .

وقد مضى العمل في تمثال « نهضة مصر » جِدًّا ، بمعونة الحكومة
وعطف الأمة ، وهو الآن يستشرف بفضل الله للتمام .

واذا كان مختار قد لقي بادئ الرأي تجنبًا وعتًا من الدهماء وأشباه
الدهماء، فتلكم سنة الكون في هؤلاء ، وهل قام في الدنيا مصلح إلا قاوموه
وآعترضوا سبيله ؟ وهل نبغ فيهم نافع إلا ملكهم الحسد من كل جانب فمضوا
ينقصونه بكل ما أحرزوا من جهل وتضليل ؟ .

ولقد تظاهر الجهل والحسد جميعا على تمثال مختار ، أما الجهل فمن
أولئك « العلماء الأقطاب » الذين تراهم يقضون بياض نهارهم وسواد ليلهم
على مُتون القهوات العاتمة ، أكفاء لأن يفهموا كل نظرية، ويُبثِّوا في كل
قضية ، بحيث لا تخفى عليهم خافية من دقائق الفلك والطب والهندسة
والسياسة وعلوم القانون وفن تعبئة الجيوش (التكتيك) وكل ما تنقطع دونه
جهود فحول العلماء في جميع العالم !! . وأما الحسد فمن أولئك الذين يصابون
بضعف الهمة وقوة الشهوة، وهم يابِّون الا أن يكونوا عظاما إذ لم يُعَدِّهم
مداركهم ولا مساعيمهم في الحياة لعظيم .

تظاهر هؤلاء وأولئك على مختار وعلى تمثال مختار فانطلقوا بكل ما فيهم من « ذكاء » و « إخلاص » ينتقصونه ويخيفون من قدره ، ومن الجهة « الفنية » ما شاء الله أيها « الجذعان » !!

وسار هذا الروح الخبيث في البلد تعضده دسائس ممن أدلى اليهم الزمن « الخائر » بمنصب لها شأن في بعض الحكم ، ولها جميع الشأن في أمر التمثال ، فما زالوا يدافعونه ويعترضونه بألوان العوائير ، ومختار ساكن سكون الوائق بأن عبقريته وحدها كُفِّ لما أعد الحسدة وتَفَهَّق الجُهال !!

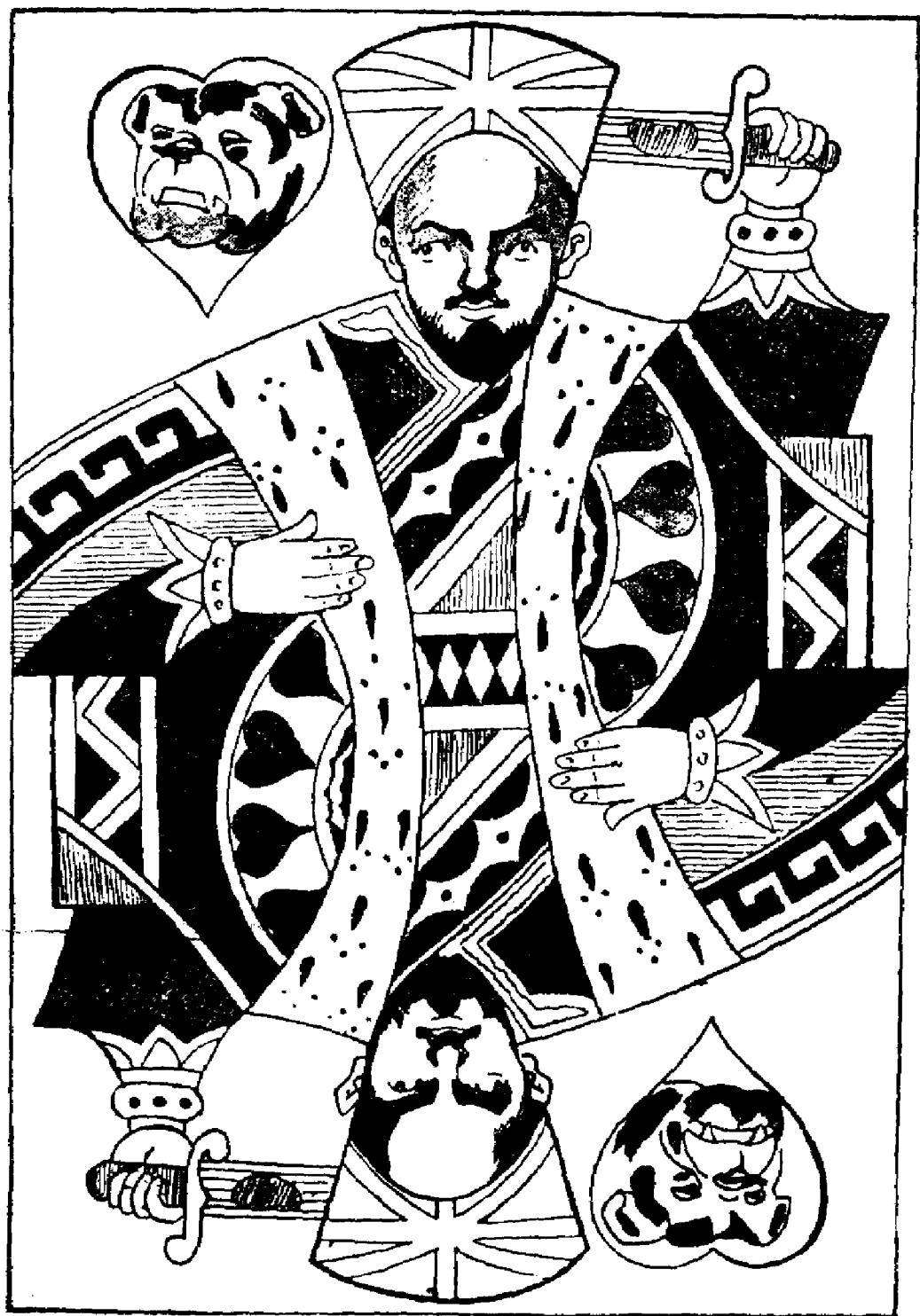
وشاء الله أن تُقدَّر هذه العبقرية قَدْرَها ، وأن يقرَّر مجلس النواب ، بين التهيل والتصفيق ، فرض المال الضخم لإتمام تمثال « نهضة مصر » وكذلك تم الانتصار لمختار ، وإن شئت قلت تم الانتصار للعبقرية الفخمة على حسد الحسدة وعلى جهل الجُهال .

وتظفر مصر أخيرا بتمثال نابغة من بنينا ، وأولئك الذين لا يُطبقون أن يسمعوا مقالة الخير في أحد من مواطنهم ، قد أمست أنوفهم في الرغام .

وفي الوقت الذي كان يُنكر فيه عبقرى « القهوات » على مختار خَطَرُفه وخطر أثره . كانت تترادف عليه الدعوات من أكبر معاهد الفن في أوربا لتستثمر موهبته في عملها الجليل إذ يأبى مختار أن ينصرف عن تمثال « نهضة مصر » في سبيل المال وما هو أعز من المال .

وحسبه من الجزاء على هذا التمثال ، أنه مخلد نهضة مصر على تطاول الأعصار والأجيال .

فهناء ثم هناء « ياسى مختار » !



?

الشيخ . . .

ومالى لا أَمْزَحَ وقد كان رسولُ صلى الله عليه وسلم يَمْزَحُ ، ولكن لا يقول
إلا حقا ، وسأَمْزَحُ الليلة ، وسأحاول أن شاء الله ألا أقول إلا حقا . سأَمْزَحُ
هذه الليلة لأنى أجد فى نفسى غِبطَةً ومَرَاحًا ونزوعًا الى المَزْحِ ، وسأفعل
فى غير تطرُف ولا عبَث .

على أنى لا أجتثُ الكلام اجتنائًا ، ولا أُطلق موضوعَ حديثى افتِلا تًا ،
وانما ألتمس له شخصيَّةً أو شخصيَّاتٍ جليلة عظيمة أخطأها الكُتَّابُ وتجاوزها
المؤرخون ، وأخشى أن يتمادى الزمن فتطوى الأيام خبرها ، ولا تقدر نواشئ
الأجيال خطرَها ، وهذا ظلم لها وللتاريخ معا .

صديق أو غير صديق أو هما معا ، الأستاذ الشاب أو الكهل أو الشيخ
أو كل أولئك فى وقت واحد ، الشيخ أو السيد فلان ... !

وأنا أشهد أنه ما أطلع على مجلسى إلا حلت له الحَبْوة ، ولا جلس الى
إلا آثرته بِتِكْرَمَتى ، ولا أرسل يده الى إلا أسرعُ بتقييلها ، لأنى أرى
فى الشيخ عظيمًا وان لم يرغبرى أن فيه عظيمًا .

هو شيخ طريقة ، وهو على صداقته وملازمته لشيخ مشايخ الطرق لا ترى ،
على ما يزعم شائثوه ، لطريقته فى سبجات مشيخة الطرق الصوفية عينا ولا أثرًا !

ثم هو رجل جمع بين أقصى مطالب الدنيا وأقصى مطالب الدين، فتراه
كما يظهر الأصيل في حلقة الذكر يظهر العشاء في بار (أرستومين) !

ثم هو سعدى، وعدلى، وحر دستورى، وحزب وطنى، واتحادى،
ومحاید، ومستقل، وغير هؤلاء جميعا !

ثم هو لا يفتقر عن أداء حقوق القصر، ولا يننى عن التوافى في كل موسم
إدار الوكالة الانجليزية، ولا يترك جريدة السياسة إلا الى (بيت الأمة) !

ثم هو يحسن العربية ويحكم الانجليزية فلا تعرف إن كان غربيا مستشرقا
أو كان شرقيا مستغربا !

ثم هو مصرى، وهو في الوقت نفسه مطاف الحالية الفارسية في مصر
يتحدث على أمورها ويُدلى بُمهمها في هذه البلاد، فلا تعرف إن كان عربيا
مستعجبا أو عجميا مستغربا !

ثم هو اذا تقفيت أصله وقصصت منشأه ومنجمه رأيت من المنوفية،
ومن الشرقية، ومن البحيرة، ومن الدقهلية، ومن الفايومية، ومن البحيرة، ومن
المنيا، ومن أسيوط، ومن جرجا، ومن قنا، هو من هؤلاء جميعا، وهو يلاغى
يلغاهم جميعا، فترى في لسانه لين حديث أهل البحيرة، وجشوبة منطق أهل
الصعيد، فتسمعه إذا نادى (محمدًا) قال (يا محمد) وإذا عبر عن الفم، قال
(الحشم) .

هو ولا شك عصبه أم تجول في قفطان وجبة !

لا أعرف رجلا يخصى من أسماء الناس وألقابهم وكنائهم ومعرفة من
يلابس كل إنسان من أصدقائه وأصهاره وأحمائه مثل ما يخصى ذهن الشيخ .

وأقسم لو استعانت به مصلحة الإحصاء إذ تُقبل على إحصاء أهل هذه البلاد لتغنت بعلمه وذاكرته عن خمسة آلاف شيخ حارة وعمدة بلد وسجل قديم في الدفترخانة، وموظف طواف في القرى والدساكر لجمع المعلومات، وإثبات الأسماء والصفات .

وإذا حضرَكَ في هذا المقام أن الشياطين تشكّل فلا يذهب عنك أن الملائكة كذلك تشكّل، وأن أولياء الله يتشكّلون، ولِلأقطاب والأبدال، في التشكّل أحاديث طوال !

وإذا كنا نحتفل في هذه الدنيا بشخصية واحدة ونُخذها موضع الحديث والتحليل والتمثيل فكيف بسبع وثمانين شخصية قوية قد اتسقت كلها لرجل واحد ! ليس على الله بمُستذكّر * أن يجمع العالم في واحد

وأقسم ثانيا لو أن صاحبنا قد نجم في عهد الجاحظ أو اطلع عليه علم كارليل لخصّت به الرسائل وأُفردت له الأسفار، ولكن أنى لنا جرأة قلم الجاحظ أو دقة ذهن كارليل لنقول في الشيخ كلّ ما ينبغي أن يقال فيه، وإذا كنا عاجزين عن تقصّي جميع عبقرياته الحسان، فلا أقلّ من أن نلّم بفضائله في ليلة من (ليالي رمضان) ! ...

شيخ السوق

لقد دُمِيَ هذا البلدُ بشيخ روميّ التَّبَعَةِ ، الماني الطَّلَعَةِ ، انجليزى
التَّرْعَةِ ؛ له وجه كَسَنام البعير ، ووجتان كأنما استُعيرتا من نار السعير ، يَفْرُقُ
بينهما مَنخِرَان غليظان يقذفان بالحُمَم ، ويروحان على جلسه بأخبث من ريح
الرَّمَم . ودونهما فمٌ قد افتنَّ الشيخ في إحكامِ دِبَاغِهِ ، وتجويد أصباغِهِ ؛ فإذا
راعتك منه حُمرة الشَّفَاه ، فاعلم أن ذلك من صُنْعَةِ « دِلَّار » لا من صُنْعَةِ
الله . وله عينان دَقَّتَا عن الأنظار ، فلا تستكشفهُما العيون الا بِمِنظار ؛ على
أنهما أبصرُ من زرقاءِ اليمامة ، وهيهات أن يُخَطِّبَهُمَا موقع الدرهم من هنا
الى يومِ القِيَامَةِ . وله عُنُقٌ قد رَهَلَتْ جلده السنون الطَّوَال ، ولولا (البودرة)
تُمسكه لَسَالَ !

ولقد أطلع الشيخ على السبعين ، ولكنه لا يرى شيئا من العَاب ، في أن
يُبرُز في دَلِّ الناهذ الكَمَاب ؛ فلا تراه الا مُرَجَّلُ اللَّة ، (مُهَنَّدِم) العمّة ؛
يجول في قَفْطَان كأنما قُدَّ من فِرْدِ سَيْف ، أو تُسِج من خيوط الطِّيف ،
فترى أحمره يَسِيل في أخضره ، وأزرقه يموج في أصفره ؛ يتفرق فيه
مثلُ العَسْجَد المَذَاب ، أو شُعَاعُ الشَّمْس إذا تهبَّت للاغتراب ؛ وقد
أمعنت « الخبَاطة » في تقوير أعلاه ، فانحسر من صدر الشيخ على مثل
المرآة ؛ وقد أطلَّ على حِفَافِيهِ نَهْدَانِ كأنما قاما على حراسة هذا الغدير
الرقراق ، من أعين الحَسَاد وشِفَاه العِشَاق ؛ ومن دونهما منطقة (حَرام) قد

سُجِّرت بالأفنان والأوراق ، وحلقت على جداولها كلُّ سَجُوج من ذوات
الأتواق ؛ وقد تأنق الشيخُ به في تكوير أردافه ، وتدوير أعطافه ، فما تدرى ،
إذا مارأيتَه ، أأنت في (حضرة) شيخ عظيم ، أم في مجلس غانية في (الألدرادو)
القديم ؟ !

أما الحبة — وقاك الله الخبيث ، وعصمك من فتنه التخنيث — فهي من
(الموسلين) ، أو (الكريب جورجيت) أو (الكريب دى شين) ؛ وأما ألوانها
فالوردى ، أو البنفسجى — أو (النانجو) أو (البلوكانار) ؛ ولقد اختلف رداء الشيخ
على العيون ، واستعصى علمه على متناول الظنون ؛ فما تدرى أيحُبُّ في عباءة ،
أم يُحَلَّى على الناس في مُلاءة ؛ أما هذا الذى غاب علمه عن النفوس ، فتفصيله
عند مدام رُبوا أو مدام كلبوس .^(١)

(١) حياطتان شهيرتان .

تنبيهه — وقع خطأ في صفحة (١٨٢) تحت صورة الأستاذ مختار
« اتمثال » كلمة (قلدى) ، وصوابها (نخلدنى) . وفي السطر الأول من صفحة
(١٩١) كلمة رسول ، وصوابها (رسول الله) .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥١٤/١٩٢٧/٣٠٠٠)